

روایات عبر



فیولیت وینسیر

# الضَّقر والیمامة



## الضقر واليَمَامَة

كان «الضقر الذهبي» قصراً لا كالقصور، وسط ادغال البرازيل ومزارع البن الشهيرة باتساعها وروعتها. وكان الرجل الذي يملك المكان يدعى الدوق بيدرو روش زاتو، واحداً من سلالة برتغالية عريقة جاءت طلائعها مع الفاتحين... أما جين الفتاة الانكليزية الرقيقة، بشكلها الصباني ووجهها الذي لم يجذب احداً من قبل، فجاءت بالصدفة الى البرازيل لتحضر زواج ابنة عمتها لارين من ذلك الرجل...

وتتغير كل المصاريح فجأة: يُلغى الزواج وتجد جين نفسها وجها لوجه امام عرض الدوق بيدرو. لتعمل مربية لابنه المعاق... فمن هو ذلك الطفل المدهش، وما قصة شقيقة الدوق التي نذرت العفة والابتعاد عن العالم في البرتغال، والى اي حد يصل بها ذلك الشعور بالحب تجاه الدوق، وهي فتاة عادية الشكل وحظها مع المغامرة لم يكن يوماً على اشراق؟

## ١- المهمة الصعبة

البحر شديد الزرقة كالياقوت المذاب تحت شمس لاهية راحت تلقى  
بأشعتها المذهبة على الشاطئ.

وجين دأير تنف في الشرفة، تشد بأصابعها العارية على السياج،  
تتنشق نفساً عميقاً من الهواء الدافئ المعطر برائحة البحر والمرجان  
والنباتات الطالعة هنا وهناك.

إنها فتاة إنكليزية شابة وتشعر بسعادة يشوبها الكدر حين تتأمل  
هذا المشهد، لأنها اعتادت على مناظر بلدها الهادئة المتساففة، وجمال  
نظرها في اتجاه الصخور الضخمة التي تليق على الشاطئ، ثم ارتفع  
نحو القمم المكسوة بأشواك برية مزهرة وبأشجار النخيل القصيرة،  
وامتدَّ بعدئذ صوب مدينة بورتو دي زاتو.

ولبورتو دي زاتو مكانها في التاريخ بسبب حادث اختطاف  
تعرضت له بعض الراهبات على أيدي الفراسنة، فقد تم دفع القديمة  
من الياقوت الأحمر الذي يملكه رجل يدعى بيدرو المنذور دي روس  
زاتو وهو لورد يملك مئات الألوف من الهكتارات في البرازيل، منها هذا  
الرقع وما يحيط به من قرى وبلدات. جين اطلعت على هذه القصة في  
الدليل السياحي الذي اشترته من مطار الريو، وبدأ لها أن القصة



مبالغ فيها، فالكتاب يذكر ان الدوق بيدرو كان على علاقة عاطفية مع فتاة برازيلية اضطرت الى دخول دير الامة الناطقة بعدما انتهت علاقتها بالدوق الى الانفصال.

اغرقت عينا جين بالدموع وهي تتأمل ما حولها من جمال. وهي التي اعتادت ان تضبط انفعالاتها منذ صغرها. فقدت والديها ولم تعد لها من يعطف عليها سوى عمه هي كل ما بقي لها من العائلة. انها تتردد في ان تفتح قلبها للناس او حتى للأشياء. لقد ادركت ان الناس يتقبلون الواثين من انفسهم فقط ويرفضون الضعفاء. كما ايقنت ان الناس لا يميلون الا للذين يتمتعون بالجمال والاثارة. فكيف الحال معها وهي الفقيرة العادية المظهر؟

حولت نظرها عن الرمال المتلألئة تحت اشعة الشمس واستقرت عيناها على اشجار النخيل الخضراء المذهبة. تلعب أوراقها كالزمرد. أه لو تستطيع ان تحب هذا المكان ، ولكن من اين لها الجرأة؟

جاءت الى البرازيل لتحضر زواج ابنة عمتها لارين، على ان تعود بعد ذلك الى انكلترا مع والدة العروس مارج ديسموند، التي اصبحت جين بالنسبة اليها الرفيقة والسكرتيرة ومديرة اعمالها. وكانت العمه في حاجة الى جين لتضبط لها كل شيء. لأن مارج كانت ممثلة هزلية، طائشة، غريبة الاطوار. لم تتمكن يوماً من ان تصبح نجمة لامعة، برغم انها تمثل في افلام تؤدي فيها ادوار لسيدات من المجتمع الراقي، الذي تنتمي اليه.

دخلت مارج متهادية الى الغرفة ورأت جين سارحة في الطبيعة فبادرتها قائلة:

«اذا كنت تحلمين بفارس اسر فأنصحك بأن تنخلي عن هذا الحلم والأ

تجربي في المظاهر. فالبرازيليون ليسوا عاطفيون كما يحاولون ان يظهرها»

استدارت جين وتطلعت الى عمتها وقرأت في عينيها ما جعلها تدرك ان مارج تهيم لمعركة.

عشت مارج على شفيتها العريضة فاصبحتا نحيفتين بلون الارجوان والتقطت معطفها الحريري بخفة كما يلتقط الهرشيتا ماء، لكن ذلك لم يخف جين. فهي تعرف انها ليست جبانة تماماً مثل كل الذين يشعرون بانهم وحيدون ومتيؤون.

وبدأت جين تتوقع ان تنفجر الكلمات من فم مارج في اية لحظة. ولم تحاول ان تتكلم او تبدو منها اي حركة تدل على انها مستاءة او مزعجة. ذلك ان جين تحفظ لعمتها العرقان بالجميل، فهي التي أمتت لها منزلاً وارسلتها الى المدرسة ثم وظفتها عندها بدل ان تبيع نفسها من كل هذا العذاب وتضعها في احد الميائيم.

«جين ، تعالي الى هنا. اريد ان اطلعك على امر ولا احب ان يسمع كل هؤلاء الفندق ما سأقوله»

تركت جين الشرفة ودخلت الى الغرفة وقالت:

«ماذا عندك؟ هل حدث شيء؟»

ما عادت تنادها يا عمتي تنفيذاً لأوامرها، فهي تعتبر ان هذا اللقب يظهرها متقدمة في السن ويحط من قدرها كممثلة.

وبحركة غاضبة خلعت مارج معطفها الحريري وبحثت في حقيبتها عن عليّة السكائر ثم وقفت تنتظر ان تشعل لها جين سيكارة.

وبعدما اخذت مارج سحبة عميقة تطلعت الى جين بغضب وقالت:



«نعم، حدث شيء، لن يكون هناك عرس، ابنتي لن تتزوج الدوق»  
كان الخبر مفاجئاً تماماً لجين. ولذلك ارتقت على طرف المقعد الكبير  
واخذت لتحقق في عمقتها: كيف يمكن أن يكون الخبر صحيحاً مع أن  
لارين كانت متحمسة للزواج من رجل ثري، ناضج ومن طبقة  
النبلاء. وقالت جين:

«لا أظن أن الأمر سيء إلى هذا الحد. وقد تكون القضية ناجمة عن  
شجار بسيط سببه التوتر الذي لا بد منه قبل الزواج. واعتقد أن الأمور  
ستعود لتنظم من جديد»  
قاطعتها مادج بحدة:

«لارين، إنها من أجل النساء واغنائهن في انكلترا. ترك لها والدها ثروة  
كبيرة. وأن بدت متواضعة بالنسبة إلى ثروة الدوق، كثيرون طلبوا  
يدها وعندما اختارت هذا البرازيلي لم اعارض برغم أنني علمت أن  
للدوق ابناً سيرث اللقب. وانت تعرفين أن لارين عتيقة تتمسك  
بالقرارات التي تتخذها. وكانت تعتبر أنها والدوق سيكونان زوجين  
مثاليين. حتى اقنعتني بأن يتم الزواج بسرعة وببساطة من دون  
مراسيم واحتفالات. ظننت أن الدوق يفضل ذلك لأنه أرمل، لكنني  
علمت فيما بعد أنه لم يتزوج، وأن ابنه تريستار هو ثمرة علاقة  
عاطفية قديمة، وأنه يريد الزواج من ابنتي كي تكون أمًا لهذا الولد  
الذي علمت أنه معاق. بعدما أصيب في حادث سيارة وكان عمره  
ثلاث سنوات»

الطفأت مادج سيكارتها بحركة عصبية وأضافت:

«طبعاً الولد ليس مسؤولاً عن عاهته. والخطأ الذي ارتكبه الدوق في  
شبابه يمكن أن يكون مغفوراً، لكن ما لا يمكن أن أسمح به هو أن

تصبح ابنتي لارين سجيناً في قصره، بعيدة عن الحياة المرحية التي  
تحبها، لتصبح أمًا لابنه غير الشرعي. طلبت من لارين أن ترفض  
هذا الزواج لكنها خائفة من مصارحته بأنها لن تتزوجه»

سعت جين أقوال عمتها وهي في ذهول. كانت هي أيضاً تعتقد  
أن الدوق أرمل وهو الآن يعترف بأنه والد لابن غير شرعي. وهذا  
بالنسبة إلى جين دليل انحراف خصوصاً وأن الدوق لابنتي. ذلك  
أنه من المعروف أن النساء في أمريكا اللاتينية منضبطات والرجال  
يعاملنهن باحترام.»

قالت جين بصوت منخفض:

«لا بد أن لارين اختبرت مزاجه الصعب قبل أن تخطبه. فمن  
الطبعي أن يكون هذا الثري البرازيلي على شيء من العجرفة. هل هي  
متأكدة أنها لم تعد تحبه؟»

تطلعت إليها مادج بسخريّة وقالت بحدة:

«انت لا شك تقرأين القصص العاطفية. أنا نتحدث عن الزواج، عن  
الشراكة العملية الممكنة بين شخصين يجب أن يكونا زوجاً وزوجة  
وليس سيداً وعبيدة. منذ البداية افهمت لارين أن للرجل في  
أمريكا اللاتينية نظرة متعالية إلى الزواج، تختلف عن نظرة الرجل  
الانكليزي المنفتح، اللطيف، الهادئ. لكنها تجاهلت نصيحتي وهي  
تتظن أنني أن أخرجها من هذا المأزق المزعج في شكل مسرحي كأنها  
تتضرع إلى الله»

هأبى أن الدوق لن يتخلل عن لارين بسهولة، فالخطبة بالنسبة  
إليه خطوة مهمة وجادة يعتبرها شبه زواج، ولذلك ليس من السهل  
فسخها. أنني أفضل أن اتوارى أنا ولارين عن الانتظار قبل أن



يعرف الدوق ان الزواج لن يتم.

سبق لجين ان سمعت من عمتها الكثير من التعابير الغريبة والكلمات المدهشة. لكنها الآن تجاوزت كل حدود.

قالت جين مستغربة:

«لا يمكن مواجهة هذا الموضوع الخطير بالتهرب، بل يجب ان تقابل الدوق وتصارحيه . فهو، في كل حال، رجل ذو اصل نبيل وله مركز في البرازيل. ولا يحق للارين ان تتصرف معه كما تتصرف مع بيبي.»

«اعترف بانها لم تتصرف جيداً مع بيبي، وعندما نعود الى انكلترا سأحاول اقتناعها بأن تمنحه فرصة اخرى. انه شاب لطيف ولديرو وشریف والمجال فسبح امامه لأن يصبح في المستقبل ذا شأن.»

استكت مادج رأسها بيديها وحدثت في جين بشيء من الحنان وقالت:

«عاملتك معاملة جيدة اليس كذلك؟»

كانت تبرة صوتها باردة وحادة كاللأس الذي يلمع في معصمها. ظلت جين جامدة كالتمثال. ولم تتحرك خصلة واحدة من شعرها الاسود الناعم واجابت بهدوء:

«نعم، انني اقر بذلك.»

«ولارين اتم تعاملك مثل اختها تقريباً؟»

«تقريباً، نعم.»

«نفهمين اذاً ماذا قصدت؟»

«ليس تماماً.»

لم تستطع ان تتصور ان مادج تريد ان تتولى هي الاطلاع

الدوق على هذا النياً المثير، ان تقول له بكل بساطة: لارين ترفض الزواج منك يا حضرة الدوق!

انتفضت جين وقالت بعصبية:

«لا! لن اتولى هذه المهمة! لا يمكنك ان تطليبي مني ذلك، انك تستغلين طبييتي واخلاصي واحترامي، انتي مدينة لكثير بالكثير. فقد امثت لي البيت والعمل، لكنني لست مستعدة لأن الحمل ردة فعل الدوق على القرار الذي اتخذته لارين. بل عليها ان تواجه مشكلتها بنفسها.»

فجأة تبدلت النظرة في عيني مادج. صارت مزيجاً من الحنان والسحر والاستالة، واقتربت من ابنة اخيها وضمت يديها بشدة وقالت: «يا عزيزتي، انك الانسانة الوحيدة القادرة على ابلاغه النياً من دون ان تتخلي عن براءة الطفولة. لا يمكن اي انسان ان يغضب منك وهو ينظر الى هاتين العينين الصاليتين. لقد قمت بعدة عمليات من هذا النوع خلال السنوات الاربع التي عملت فيها معي، ونجحت. وانا متأكدة انك ستفعلين الشيء نفسه مع الدوق. انك تحبين لارين وهي الانسانة الاكثر قرباً منك فيمكنك ان تعتبرها اختاً. وانا متأكدة انك لن ترضي بأن تكون بحيرة على الزواج من رجل لم تعد تحبيه.»

اجابت جين وهي تحاول العودة الى الواقع:

«يبدو ان لارين لم تتأكد من حقيقة مشاعرها تجاه الدوق قبل ان توافق على عرضه. ولكن يمكن القول ان الدوق وجد في لارين ما لم يجده في اي امرأة اخرى، فضلاً عن ان لارين ستصبح بعد زواجها دوقة محترمة. ماذا تريد أكثر من هذا؟»

عادت الحدة والقسوة الى عيني مادج وهي تقول:



«حذار يا فتاة! ليس لك أحد الآن ولا رين. العالم صحراء قاحلة بالنسبة الى من ليس عنده منزل او انسان يحنو عليه. لقد عشت معنا واعتدت حياتنا. انك تحبين المسرح وبسهولة احرملك من كل شيء... كان في الامكان ان تصبحي مثلة لو ان شكلك مقبول. اسمعي الآن: اتيت امامك الفرصة لكي تمثل الدور الذي اطلبه منك. واذا كنت بالفعل تريدان ان تسدي بعض ما فعلته لك من جميل لها عليك الآن ان تقومي بالمهمة التي اطلبها منك.»

بدأت تعتدل في نفس جين احساس متناقضة فبرغم شعورها بالغضب من كل ما قالته عمتها، لم تستطع ان تقاوم شعور المتعة والاعجاب بهذه المثلة الفديرة التي تجيد اداء دورها. ان ماذج انسانية مشاكسة بطبيعتها وهي في هذه اللحظة تناضل، ولو بطريقة ملتوية من اجل ايبتها الوحيدة المدللة. وماذج تدرك انها اذا واجهت الدوق بنفسها، وهو الرجل القاسي، سيؤدي ذلك الى اصطدام بالشخصيتين والى تصلب في مواقفها. اما جين فبطبيعتها الهادئة ووجهها الطقولي وبراءة عينيها تستطيع ان تؤدي المهمة من دون ان تضطر الى خوض معركة مع الدوق.

افاقت جين من تأملاتها على صوت ماذج تقول لها: «اذهبي وقابلي الدوق من اجل لارين ومن اجلي ايضا. لن تخسري شيئاً. بل ستربحين معطفاً من الفرو اشتره لك حالما تعود الى لندن.» «ارجوك يا ماذج. لا تحاولي رشوتي. انا لا احب هذا الاسلوب في التعامل. ثم هل هي متأكدة انها لم تعد تريد الدوق؟ الا يمكن ان يكون قرارها نتيجة ثورة غضب.»

يبدو ان جين ايضاً تخشى ردة فعل الدوق ان هو اطلع على النبأ.

انها لا تعرف الدوق وبدأت تتخيله: انه مأكو، خبيث، قاس، يتصيد النساء ثم يتخلى عنهن بعد ان يثال مأربه... تصورت انه سيوبخها وسيطردها، هي السكرتيرة النافذة لأنها تجرأت وابلقته بأن لارين لم تعد تريده!

ووجدت نفسها تسأل عمتها:

«وهل هو بالفعل انسان مخيف؟»

ومن غير ان تنتظر الجواب اضافت:

«في أي حال، لو كانت لارين مفرمة به لما رضيت بأن تتخلى عنه بهذه السهولة!»

حدثتها ماذج بنظرة ازدراء وقالت:

«الحب نوع من العيب يستهوي الخادومات والفتيات النافحات. ولارين لا تأبه لهذه الحماقات. ولو انني كنت اعرف ان حياتها ستكون سعيدة مع الدوق لما اقنعتها بفسخ الخطبة. الرجل في امريكا اللاتينية يعتبر ان مكان المرأة الطبيعي هو البيت. في حين انه يسمح لنفسه بان يمارس كل انواع اللهو والمرح. ولارين لا يمكن ان تكون تلك الزوجة. انها تطمح الى الزواج من رجل ثري يسمح لها بالتمتع ببعض الامتيازات.»

وهنا فاطمتها جين قائلة:

«ماذا تقصدين بالامتيازات، هل تعنين المغامرات العاطفية.»

«لارين تستهوي الرجال. وامرأة من هذا النوع حرام ان تتحول بمجرد لوعة على جدار في قصر او قطعة اثرية في متحف. ان لارين مسكينة ولا تستطيع ان تتحمل نتائج لقائها بالدوق مرة اخرى.»

توقفت ماذج قليلاً ثم تقدمت نحو جين وقالت:



«لارين وانا سنغادر البرازيل مساء اليوم، اما انت فتطلبين موعداً من الدوق لمقابلته. وعندها نشرحين له كل شيء.»

بدأت جين تشفق على عمتها. لقد حاولت في البدء استئذانها بالتهديد والوعيد وما هي الآن تعترف بانها عاجزة عن مواجهة الدوق. وبأن جين وحدها القادرة على انقاذها واتخاذ لارين من المأزق. فقالت جين:

«لارين لن تصبح ابداً امرأة مسؤولة يا مارج لأنك تسمحين لها بالعيش على هواها وبالسخرية من الناس وبعدم احترام مشاعر الآخرين. الناس ليسوا دمي.» ابتسمت مارج وقالت:

«انك تلقين خطاباً اخلاقياً مملأً يا صغيرتي. وهذا الاسلوب ينظر الرجال انهم يرون فيك الكثير من الفضائل والقليل من السحر. في اي حال لا تخافي. فان قلب الدوق لن يتحطم. ان انساناً مثله بلا اخلاق لا يمكن ان يكون عاطفياً. سيفضب بعض الشيء لكنه لن يلبث ان يهادن اعصابه في انكسار عينيك.»

اشعلت مارج سيكارة وتابعت:

«تصورى يا جين كم كانت لارين حزينة حين ابلفها الدوق بكل وقاحة ان ابنه المعاق تريستاو يحتل المرتبة الاولى في قلبه وان كل ما هو مطلوب منها ان تكون امّاً لهذا الولد المعاق. لقد توسلت الى لارين لانقاذها من هذه الورطة لأنها ترفض ان تعيش كل حياتها سجينة القصر مع ولد معاق ليس ابنها.»

توقفت فجأة لتأخذ سحبة من السيكارة ثم قالت:

«انا والثقة يا جين انك ستساعديني. انت شجاعة وقادرة على.

مواجهة هذا الوضع. وثقي بأنني لن انسى عملك هذا وسأكافئك.» «لا اريد مكافئة. انتي اوافقي على مقابلة الدوق لأنه ربما حدث ابنه عن لارين. ومن حق هذا الفتى ان يطلع على الحقيقة كلها. واذا لم اتكمن من مقابلة الدوق لسبب ما فسأجعله يطلع على خير فسخ الخطبة من الصحف بعدما تكونين انت ولارين قد غادرتا البرازيل.»

«حسناً. لا اريد تحمّل الهيلة التي ستعقب معرفة الدوق بالامر. ان ابناء امريكا اللاتينية مختلفون عنا تماماً. انهم يعتبرون الزواج امراً مقدساً. من الآن فصاعداً، سأنصح لارين بالأ تعاشر غير الانكلو ساكسون.»

ارتدت مارج معطفها وهمت بالذهاب. ثم التفتت الى جين وقالت:

«انني الآن تتراجعني عن قرارك. كما ارجوك الآن تكوني قاسية على لارين عندما تتحدثين عنها مع البرازيليين.»

اغلقت مارج الباب وراها تاركة جين وحيدة الآن من القلق والشعور بالرهبة من مواجهة الدوق الخطير الذي لا تعرف عنه شيئاً سوى ما اطلعنها عليه عمتها.



ازدهام وضجيج وعجيج ولا هواء ملوثاً بدخان المازوت ولا قذارات وروائح نتنة. من نوافذ السيارة المفتوحة تنسرب رائحة البحر ويفرح اريج الارض فاكهة وبناً وسكراً ولحماً وذرة.

راقت جين عصفوراً جناحه شقراوان يحلق دائماً الى اعلى، يبنى عشه ابنا كان في هذا الفضاء الساحر، حيث يعيش العقاب على رؤوس الجبال العالية.

شعرت جين انها باتت اسيرة هذا المكان الساحر، كم هو رائع هذا الاحساس بالحرية... الحرية؟ وعادت الذاكرة بجين الى الورا، وادركت انها مدينة بالكثير للذين اهتموا بها بعد موت والدتها. صحيح انها ثارت على عمتها عندما طلبت منها ان تتغذ لها مهمة معينة لكنها مع ذلك عادت ورضخت لانها فتاة فقيرة وعليها ان تفسي الدين المفروض عليها من المال لعمتها كلما استطاعت الى ذلك سبيلاً.

ابنة عمتها لارين غللك مبلغاً من المال يجعلها قادرة على ان تكون مستقلة. لكن جين المليئة بكل معاني المسؤولية تشعر داتها بأنها يتيمة وبأنها مرتبطة رغباً عنها بالآخرين. انها تعرف ان في استطاعتها ان تترك مادج وان تبحث عن عمل في مكان آخر، لكن عاطفتها ووقاها كانا يشدانها الى البقاء. في اي حال فالحياة عند مادج ليست مئة فهي ترافق عمتها الى التمارين على المسرحيات الجديدة وتشاهد الفنانين والصنفيين والكتاب الذين يترددون دائماً على بيت مادج في حي وستمنستر الراقي في لندن.

هذه المتعة هي كل ما غللك جين ومن اجل المحافظة عليها قبلت ان تذهب الى فيللا الصخرة وبأن تقدم على مغامرة مقابلة الدوق لتليقها بأن لارين لا تريد زوجاً لها.

## ٢- البلاغ والتبليغ

استأجرت جين سيارة وطلبت من السائق ان يذهب بها الى مقر الدوق على شاطئ البحر المعروف بـ«فيللا الصخرة».

ظل السائق صامتاً طوال الطريق المتعرجة، واكتفى بقيادة السيارة في مهارة. كان البحر الساحر يظهر بين الحين والآخر، كذلك القرى المبعثرة في محاذاة الشواطئ الصخرية العالية المحاطة بالاشجار ذات الاوراق الملونة. على الشاطئ، شاهدت جين زوارق الصيادين راسية على الرمال، مشدودة الاشرعة تنتظر ان يفرغ الصيادون ما اصطادوا من اسماك لنقلها الى المستودعات.

المنازل الصغيرة كانت مطلية بالكلس، شرفاتها من الخشب المخرم وهي قائمة وسط حقول الموز الاخضر وقصب السكر وسابل القمح التي لوتها الريح.

كان المظهر حياً وبدائياً كأنه لوحات من العصور الغابرة. ورغم ان جين كانت مستعجلة للوصول الى فيللا وانتهاء مهمتها، لم تستطع ان تنزع نفسها من التمتع بكل ما تراه. سبق لها ان سافرت خارج انكلترا الى باريس ونيويورك، لكنها المرة الاولى تصطحبها عمتها الى بورتودي زاتو، الذي يعتبر من الاماكن التي لم تشوهها الحضارة، فلا ناطحات سحاب من الزجاج والاسمنت، ولا



في حقيبة جين صندوق صغيرة بداخلها الهدايا الثمينة التي قدمها الدوق الى لارين يوم الخطبة. انها مجموعة من الاساور والاقراط من الماس. وخاتم سوليتير معلق بسلسلة. لقد ارادت لارين ان تحتفظ بهذه المجوهرات معتبرة ان الدوق يملك الكثير منها لكن امها صرخت في وجهها في حدة قائلة:

«الحلى يجب ان تعود عليك ان تنصري بلباقة كي لا تزيد من ثورة الدوق. يكفيك ما سيقوله وما سيفعله عندما يتبلغ قرارك».

افادت جين من تأملاتها بيتاً كانت السيارة تدخل منعطفاً يؤدي الى ممر يحيط به من الجانبين عمودان حجريان ضخمان وعدد من الاشجار الاستوائية ذات الجذوع الزرقاء. تلتفي فوق الطريق بشكل تنظرة وارقة لللال.

دخلت السيارة المنطقة التابعة للدوق. وهنا بدأت جين تحس بهول الموقف. وتدعت لأنها وافقت على المجيء. كان عليها ان ترفض القيام بهذه المهمة. لكن ماذا تفعل بعاطفتها؟

انحنت نصف انحناء الى الامام كأنها تريد ان تطرق على الزجاج الذي يفصلها عن السائق. كانت تريد ان تطلب منه العودة من حيث جاء. لكن الألوان كان قد فأت. إذ وصلت السيارة الى الساحة الكبيرة التابعة لفيلا الصخرة.

فوجئت جين بما شاهدت. وخاب ظنها. كانت تتوقع ان ترى مكاناً جليلاً متناسقاً يتفق مع ثراء الدوق. فاذا بها تجد نفسها امام بناء غريب يغلب عليه طابع البشاعة. وتذكرت ما عرفتته عن زائو. انها تنحدر من عصور قديمة. وتعود الى تاريخ اكتشاف البرازيل على ايدي البرتغاليين. ويوم كان النبلاء منهم يذهبون بسفنتهم الشراعية

باحثين عن عالم جديد ويعمدون في الوقت نفسه الى الاستيلاء على ثروات الاراضي التي يكتشفونها ليعودوا بها الى وطنهم البرتغال. التي كانت في تلك الايام تعيش عصرها الذهبي.

يبدوان جين كانت قد طرقت على زجاج السيارة عندما انحنت. من دون ان تتنبه. فاذا بالسائق يسألها:

«ماذا تريدان يا سيدتي؟»

«هل انت متأكد ان الدوق يعيش هنا؟»

«هنا فيلا الصخرة. ان حضرة الدوق يملك منازل اخرى بالطبع. في مناطق اخرى من البرازيل. وهو يأتي الى هنا للاهتمام بالمزروعات. لكن الجميع يعرفون ان منزله المفضل قائم في الارض التي زرع فيها البن. والمزبل هناك كبير جداً واجمل من هذا بكثير. وهو يدعى: منزل الصقر الذهبي. انه اسم اول سفينة عبرت مياه أميركا الجنوبية بقيادة أحد أسلاف الدوق الذي استحق اسم السفينة نفسها».

ترددت جين في الدخول الى فيلا الصخرة. لكن السائق نزل من السيارة وفتح لها الباب. وهنا ادركت ان التراجع لم يعد ممكناً فتسلحت بالشجاعة ونزلت من السيارة وطلبت من السائق ان ينتظرها.

ارتقت السلالم المؤدية الى الباب الكبير المنحوت. يتدل من احد جوانبه جرس من الطراز القديم. وشدت بالحيل فصدر عن الجرس صوت قوي. ارتعشت معه جين بعدما ادركت ان عليها الاستسلام للأمر الواقع.

انفتح الباب وظهر خادم يرتدي بذلة سوداء وهو ينظر الى جين بلا ميالة. ابتلعت جين ريقها وسحبت رسالة ماذج من حقيبتها وقالت للخادم:



«جئت بطلب من السيدة ديسموند نافلة هذه الرسالة الى الدوق.  
وانتفى ان اتكلم من مقابلته لأن هناك أمراً مهماً أحب ان اطلعك عليه»  
سلم الخادم الرسالة ثم دعاها الى الدخول وانصرف هو الى مواجهة  
الدوق.

اخذت جين تتأمل الفيلا من الداخل. فالارض مصنوعة من  
الحشب المرصع والنوافذ من الزجاج الملون بالوان مختلفة على الشكل  
الغوطي الذي يعكس روعة الغروب. وبين جين ان تصميم هذا  
المنزل مقتبس عن الكنائس اليرغانية. فالتور المائل الذي يتعكس على  
الارضية الخشبية يؤكد ذلك. اضافة الى الائنات المنحوت من الحشب  
الغامق والرياح والنحاسيات ذات الريق الخافت.

تطلعت جين في المرأة. كانت شاحبة الوجه ذابلة العينين نهضت  
واشاحت وجهها عن المرآة. ماذا لو كان الدوق يشبه هذا المكان المنفر  
الكئيب. اذا كان الامر كذلك فإن لارين على حق.

عاد الخادم بعد قليل ليلفها ان الدوق مستعد لمقابلتها ثم دعاها  
لترافقه الى الطابق الثاني حيث توقف امام باب ففتح الخادم. وابتعد  
مفسحاً لها مجال الدخول الى غرفة واسعة ذات اثاث قاتم وليس فيها  
مقعد مريح.

وقفت جين في وسط الغرفة تسمع في شيء من الخوف دقات  
الساعة الزجاجية المثبتة في الحائط لقد مضت ساعتان منذ ان تركت  
الفندق لتأتي الى فيلا الصخرة. وما هي تنتظر الدوق منذ ربع ساعة.  
وادركت انها لن تنتهي من مهمتها الا بعد ان تمتثل الطائفة غائبة الى  
الريو ومن هناك الى لندن.

وبينا كانت جين مستغرقة في تأملاتها سمعت الباب يفتح. ثم

اطلق رجل طويل القامة. ثابت الخطوة. ويتعلل هذا من الملك اللامع  
ويرتدي بدلة الفرسان البنية اللون التي ايرزت قامته الرياضية.  
وتحتها قميص بيشا. من القماش الناعم تغطي صدره الواسع وكنتيه  
العريضتين. تفرست جين في الدوق وقهضت على الفور بسبب  
اعجاب لارين به. ثم ارتعدت جين اذ فكرت ان زوجة لنل هذا  
الرجل ستضطر الى الخضوع لنزواته.

منذ وقع نظر جين على الدوق عرفت قورا الى أين من الرجال  
ينتمى: رجل مهيب. وشخصية جذابة تبدو عليها كل علامات النبل  
والاصالة. ومع ذلك شعرت بأنها لا بد ان تنلقى صقعة على وجهها ان  
هي اطلعت على ما حدث.

لم تكن عينا الدوق تشبهان في شيء عيون ابناء امريكا اللاتينية.  
الحارة. الودية. المتساعفة. كانت تلمعان كعيني اسد متربص. وفي  
غطرسة وقحة اخذ يدور حول جين ويغظر اليها من كل زاوية.  
«تقول مدام ديسموند في رسالتها انك ابنة شقيقها ومديرة اعمالها.  
انك لا تشبهتها ولا تشبهين ابنتها. حينذاك خضروا ان لها لون عشب  
البراري البعيدة».

كانت جين تحدق فيه وتبص قلبها يتلاحق. انه انسان غريب  
ورهيـب فرض سيطرته عليها منذ النظرة الاولى.

«والآن يا عزيزتي. الا تريدان ان تتكلمي ام انك تفضلين ان اقرأ  
الفاكراد لأعرف سبب هجنتك هذا ليس عسيراً على فتاة ساحرة مثلك»  
«صحيح! لا تنقصك الوقاحة»

«هل جئت الى هنا لتقول لي هذا»

«جدجدة جين بنظرة خاطفة حابسة انفاسها. لا بد انه بدأ يدرك

الحقيقة. ولاحظ هو مدى تأثير كلماته عليها، وكأنه اراد ان يخضعها نهائياً، فاضاف:

«اجلسي قبل ان تنهاري فاضطري الى حبلك. ماذا حدث؟ لماذا ترعفين؟  
لنم تناول اي طعام طوال النهار.. لم ار في حياتي وجهاً شاحباً مثل  
هذا الوجه ولا جسماً نحيلاً مثل هذا الجسم. هل تحببك السيدة  
«يسوند ولا تدعك تخرجين الى الثورة من انت كأنك لست من هذا  
العالم، كأنك أتية من كوكب آخر. لا اعرف شيئاً عن سكانه»

لم تعد جين تتحمل وبعضية عفوية قالت

«انا قريبة السيدة «يسوند لكنني فقيرة. انا فتاة متواضعة كثير  
وهي تشغل من فضلات لارين. الكتب المهترئة، والدمى المحطمة،  
وحبات العقود المنتورة والأقلام المكسرة. وكأن ذلك لا يكفي، لأنني  
احاول الآن ان اقوم بالمهمة التي كان ينبغي ان تقوم بها ابنة عمتي  
الثالثة»

فتحت جين حقيبة يدها واخرجت منها الصندوق الجلدي الاحمر  
وقدمته الى الدوق قائلة:

«لارين تعيد اليك هذا، سيدي السرق. اكتشفت انها غير قادرة على  
الاستمرار في الخطوبة، وطلبت مني ابلاغك اسفها، فهي تحسن الى  
وطنها ولا يمكنها ان تعيش معك في البرازيل. ارجوك ان تستعيد هذه  
المجوهرات. كلها هنا داخل الصندوق»

لقى الدوق نظرة باهتة الى الصندوق المزين غطاءه بالتاج الدوشي  
وقال:

«ارجوك ان تضعي الصندوق على الطاولة»

«انني اسفة. لم تكن لدى لارين الجرأة الكافية لتطلمك على قرارها

بنفسها»

اجابها الدوق بلهجة جافة:

«يبدو انك اقدر منها، او انك وافقت على المجيء نتيجة تهديدات  
العمة وخوفاً من فقدانك الوظيفة ان لم تنفذ مطالب امارسك  
الأغنية»

«انا لست فخوراً بما افعله، لكن لا بد ان يتولى احد امر اعلامك بشيخ  
الخطوبة»

«جئت اذن تحلين اليّ النيا وتخافين ان يتحطم قلبي»

«لا، قررت لارين فسخ الخطوبة لأنها شعرت بأنك تريد زواجاً  
يؤمن لك مصلحتك. انا متأكدة انك تفهم ماذا اقصد»

«هل تريدني القول انني ما احببتها انما قصدت الزواج من اجل انني  
فقط؟ ولم لا، تريستافو بات جزءاً من حياتي منذ ست سنوات. وانا  
اعرف ان الآسة لارين ليست مستعدة للعيش مع هذا الولد غير  
القادر على الركض او اللهو مثل الآخرين»

تصلب وجهه وضغط بيديه على اصابعه واضاف:

«لعنة الله عليها، انها تشبه اللواتي لا يهمن من الحياة سوى تدوي  
القلبيات غير مكشفتات الى الذين حكم عليهم القدر بأن يلتقطوا فتيات  
الموائد. انني استغرب كيف ارجعت المجوهرات»

نظرت اليه جين باستغراب ولمعت ابتسامة وقحة على شفاهه:

«ننظرين اليّ وكأن في عينيك سؤال كبير، هل تعتقدن انني احسب  
لأنني لم امتحن لارين قبل ان اختارها؟»

اجابت جين بهدوء:

«وهل كنت فتحنتها عندما ابلغتها بأنك تنزوج منها من اجل ابنك؟ لقد



كنت تتوقع أن تتجاوب معك لارين بسرعة وتوافق على عرضك، متصوراً أنها كأي امرأة من بلادك ستبعد قلبها الحثيث لقد تصرقت لارين تصرفاً خاطئاً عندما تركتك وأنا أسفة جداً»

فرع الدوق الجرس وقال:

«كنت برحلة طويلة قبل أن تصلني إلى هنا وتحدثت طويلاً عن الهدف من زيارتك. كان لك أن تتأولي شيئاً، الفاضلين الشاي أم القهوة؟ أنا نزرع الاثنين معاً في البرازيل ولكن كل منهما قيمته... على فكرة، هل تعجبك البرازيل؟»

«ثم تنسني لي مشاهدة الكثير من بلادك، لكنها تبدو غنية بالألوان»  
«تقصدين أنها تختلف كثيراً عن انكلترا، اليس كذلك؟»

«ليس هناك أي تشابه»

دخل الخادم القرفة فطلب منه الدوق احضار القهوة والشاي وبعض الحلوى.

عظمت جين على شغتها السئلي واستعادت ما قاله الدوق عن هزائفاً. ربما كان لها في حاجة إلى وجبة سريعة لتلا قوت جوعاً نهضت جين وقالت:

«لا، لن أبقى للعشاء، أمامي رحلة طويلة قبل أن أصل إلى الفندق، استعداداً للسفر إلى لندن لموافاة عمتي»

«لن يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق. يجب أن تنظفني القهوة البرازيلية»

وأشار إلى متعة قريب من جين وقال:

«إن سائقي السيارات في البرازيل مشهورون بالسرعة، وأنا أؤكد لك أنك لن تتأخري عن الطائرة. تفضل بالجلوس يا أنسة، وإرحمني اعصابتك»

رغمته جين بنظرة حائرة. لا يبدو عليه التأثير من وقع الخبر هل يحاول إخفاء مشاعره أرضاء لكيرباته. أم أنه ما أحب لارين بالفعل؟

«ويرغم أنها كانت تفضل الذهاب للتحرر من سيطرته وجدت نفسها تليي رغبته وتجلس في للفعد الذي أشار إليه. وهنا دخل الخادم يحمل حسنية وضعها على الطاولة قرب جين، ثم انسحب تاركاً لها مهمة الضيافة»

قال الدوق:

«سأناول القهوة»

«هل تريدنا مع الحليب؟»

«لا انني افضل القهوة سوداء...سوداء مثل نفسي»

سكت جين القهوة السوداء في فنجان من الخزف الرقيق مزين بعصافير زرقاء صغيرة، ثم قدمته للدوق، واختارت لنفسها فنجان شاي مع الحليب.

«انصحك بأن تأكلي قطعة أو قطعتين من الحلوى. أنا متأكد أنك جائعة، لأن الوقت لم يسمح لك بأن تأكلي ما فيه الكفاية عند انظهر، الست محقاً يا أنسة؟»

«نعم أنت على حق»

راحت جين تفكر وهي تحسني الشاي الطيب الطعم: الرجل الذي أمامها ينتمي إلى طبقة اجتماعية رفيعة، أنه متعال واثق من نفسه،

وربما اناني. قد لا يتركها تذهب بسهولة بعدما اطلعت على النبا. مرفقه  
اللابالي ربما كان يخفي وراءه شيئاً...

فجأة قطع عليها الدوق حبل تأملاتها وقال في صوت رقيق:  
«متد متى جئت الى البرازيل يا أنسة»  
«منذ يومين فقط جئت كي...»

تولفت عن الكلام والفت نظرة سريعة على وجهه المرتعش ثم  
اضافت:

«اني أسفة لأن الزواج لن يتم. ولأن ابنك لن يجد له أمأة.  
«وانا لن...»

رفع حاجبيه وقد بدت على وجهه علامات السخرية واهضاف:  
«ابنة عمك فتاة جذابة حقاً، ولا شك انك تفهمين ماذا يعني للرجل ان  
يفقد فجأة الشيء الذي كان حتى الامس القريب حليمه الاكبر»  
«لكنك قلت: لعنة الله عليها»

«هذا صحيح يا أنسة. لكنني اعترف بأنني مسؤول نوعاً ما عن خسارة  
لارين. لم استطيع ان اقول لها اريدك ان تعيشي معي كي تكوني  
رفيقة لأنني. لكنني اعتقد انني استطيع ان اطرح هذا السؤال عليك  
يا أنسة جين داير»

كان صوته واضحاً وكذلك كلامه مما جعل جين حائرة لا تفهم  
بالفعل ماذا يقصد. تعرف جين ان الناس في امريكا اللاتينية  
حريصون على مبادئهم. وشعرت بنوع من الاطمئنان لأن احداً لا يمكن  
ان يصدق ان الدوق يحب امرأة مثلاً، دميعة وهزيله. اغضضت  
عينيهما وتساءلت: امن اجل هذا يطلب مني ان اصبح رفيقة لأبنه  
وليس له؟

### ٣- طفولة في المرأة

وضعت جين فتجان الشاي جانباً وقالت:

«شكراً لهذا العرض يا سيدي الدوق، لكنني سعيدة جداً في عملي»  
«سعيدة! انت الفتاة الفقيرة التي تعيش من اجل عمتها وابنة عمتها  
الطائشة، المدللة، الانانية. انا اعرف انها كانت تريد ان تتزوج مني  
لتصبح دوقة. التفتيتها في البرتغال عند بعض الاصدقاء. وكان  
تريستاو معي. كانت بالفعل امرأة مثالقة جذابة. حتى تريستاو  
اعجب بها كثيراً وخيل الى انها ستكون الزوجة المناسبة»

توقف الدوق لحظة عن الكلام ثم هز كتفيه وقال:

«ارى ان فكرة العمل عندي لم تعجبك. كنت اظن انك تريد  
التخلص من الحياة القاتمة التي تعيشينها مع عمك وابنتها. ارى  
انك تستغربين ما اقول. هل اسأت اليك يا أنسة»

«نعم. قد لا احب احياناً العمل الذي اقوم به. الا انني لا اسلم  
لعرض عاير مهما كانت قيمته»

«انا اتيح لك فرصة العيش في اجل منزل على الشاطئ. ورفقة صبي  
صغير لن يزعجك ابداً. فهو لا يركض ولا يلهو مثل الذين هم في سنه.  
لا تخمين الاولاد يا أنسة»



«أنا إنسانة... وأحب الأطفال. لكنني في الوقت نفسه أسيرة ظروف تجعلني مندوبة إلى أقارب. مع ذلك أجد من الصعب أن أنجذب إلى الخارج. وإن كانت فيه بالنسبة إلى فرصة العمر. أرجو أن تعذرني يا سيدي النوق. ورغم كونك خطيب ابنة عمتي فانت مجهول بالنسبة إلي. ليس هذا صحيحاً»

تجاهل النوق الجواب وألقت بين نظرة نحو الباب الذي قد يعبر بها إلى الحرية وقالت:

«أعتقد أن الوقت حان للرجل سيدي النوق. سين وأطلعك على موعد سفري»

اجابها بحزم:

«لا تسافري. حان لك أن تبدأي حياتك يا جين داير. حان لك أن تقاربي التحدي. كنت اظن انك إنسانة شجاعة عندما واقفت على أن تتولي الإلغى الثأر. أرى الآن أن شجاعتك تنهار أمام العرض الذي قدمته إليك والذي يتيح لك أن تعيشي حياتك»

ابتعد عنها قليلاً وكأنه يحاول أن يبرهن عن لامبالته وقال:

«عودي إلى آل ديسموند. يبدو أنك تخمين أن تعيشي على الهامش»  
«على الهامش»

كان في رد جين أن تصفع هذا الوجه الأسمر القاسي. أن تجعل هذا الرجل المتعالي يعرف قسوة العذاب الذي تعاني منه كل يوم. كل ليلة. بل كل دقيقة. بسبب الآخرين:

«هل تظن أنني سأكون إنسانة مختلقة إذا عملت عندك»

«بل على العكس يا أنستي. انك كرفيفة لأنني متعرفين معنى المسؤولية التي لم تقاربيها حتى الآن. تريشاو صبي شجاع

والمطلوب منك السهر عليه والاهتمام به والمحافظة على راحته وسعادته. وهذا المركز أفضل بكثير من مهنة السكرتيرة أو الخادمة التي تقوم بأي عمل يطلب منها. إضافة إلى ذلك سيكون رائك محترماً. وأخصص لك جناحاً خاصاً في الصفر الذهبي. هل هذا واضح يا أنسة

«نعم انه واضح. ولكن لا تعتقد انك تتسرع بعض الشيء. أنت لا تعرف عني شيئاً سوى أنني قريية لارين. صحيح أنني لا أشبهها شكلاً. لكن قد أكون إنانية مثلها. وبالتالي قد لا أستطيع لحمل مسؤولية رعاية ابنك وورثك»

«هذا صحيح...»

قال ذلك وتقدم منها وقيل أن تتمكن من الابتعاد كان قد أمسك بذاتها ورفع وجهها وراح يتفحصها بنظرات لا تخلو من القسوة ثم جد في عينيها قارتعت وأجتاحها إحساس غريب ينتابها للمرة الأولى:

«تذكريني بتلك المهورية المخلصة التي عرفتها يوماً. انك ترفضين باستمرار أن تظهرني شخصيتك الحقيقية. عند آل ديسموند يمكنك أن تقومين بأي خدمة يطلبونها من دون أن تهبي قلبك... لكن مع ولد من عمرايني كل شيء يختلف. أنت تخافين الحب. ليس كذلك»  
«ليس هذا من شأنك»

حاولت أن تتخلص منه أو على الأقل أن تبعد نظرها عنه. لكنه كان يمسك بها بقوة:

«إنسانة مثلي بعيدة جداً عن الوقوع لمريسة الحب»

«هل تسمحين بأن أمالك عن السب»

«أعتقد انك ترائي الآن في وضوح. وهذا يجعلك قادراً على اكتشاف

السبب»

«هل تعين أنك لست جميلة؟»

«قالت لي ابنة عمتي لارين ذات يوم اتني بطة بشعة»

«اعتقد أنك كنت لا تزالين طفلة عندما قالت لك ذلك؟»

«كنت اعرف انها تقول الحقيقة، انها جميلة، وفي المنزل عدة مرايا يا سيدي»

«يا لك من غيبة. لقد ارتضيت لنفسك هذا النعت وانغلقت على نفسك وصرت اسيرة تلك الصورة. ثم هل من الضروري ان تكون مربية ابني عارضة ازياء؟»

«انت قلت ان ابنتك اعجب بـلارين»

«هل تخشين ألا تتألي اعجاب تريستاو؟»

«اثقون ان يغيب امله عندما يراني وهو الذي يفضل ان تكون له ام جميلة»

«لماذا لا تجربي الامر بنفسك وتتظري ردة فعله؟»

«أفضل ألا أفعل»

ابتعد الدوق قليلاً عن جين وقال:

«هل انت مضطرة حقاً الى العودة على الفور الى لندن؟»

«حجزت مكاناً لرحلة منتصف الليل»

«يمكن الغاء الحجز وارسال بريقة الى عمك تقولين فيها أنك مريضة وان الطبيب تصحك بالباء في يورتودي زاتو اسبوعاً آخر. هل معك ما يكفي من المال؟»

«لدي مبلغ صغير. مادج سددت حساب الفندق حتى هذا المساء»

«انه تصرف احق من جانبك ان ترسخني لهذا الوضع»

«لا تنسي ان عمتي كانت بتصبح حياتك»

«وانت لا تنسي انني لست مثل الانكليز عادناً ومتساهلاً. لقد تبهت لارين انني ارفض تدخل امها في شؤوننا، في اي حال انتهى كل شيء. يجب الآن ان ترتب لقاء مع تريستاو. لا بأس اذا بقيت اسبوعاً آخر هنا. وسأقول دفع نفقات الإقامة في الفندق. عديتي بأنك توافقين على المجيء الى القصر الذهبي. اذا كان لقاؤك مع ابني ناجحاً»

شعرت جين برهبة امام هذا الموقف. ورغم انها لم تستلطف الدوق لكنها تشعر برغبة في التخلص من سيطرة مادج وابنتها عليها.

«لماذا ترددتين؟ ألم يعجبك عرضي؟»

«اريد ان اجتمع بآنك يا سيدي لكني لا استطيع ان اقبل بأن تدفع عني حساب الفندق اذا بقيت اسبوعاً آخر»

«لا بأس. لن ادفع حساب الفندق شيئاً. فقد يؤدي ذلك الى افاويل وشائعات نحن في غنى عنها سأعطيك المال نقداً واعتبريه دفعة من راتبك اذا وافقت على العمل معي. هل هذا يريحك؟»

اخفضت جين غيبتها ولم تجيب.

«انصحك يا آنسة بأن تشربي الشاي قبل ان تعودي الى الفندق»

«السائق في انتظار»

لا تهتمني بالسائق. فهو يتناول المربطات ويأخذ قسطاً من الراحة. سأتركك لحظة لأكتب رسالة سريعة. ارجو ان تأكلي الحلوى»

انسحب الدوق واغلق الباب خلفه وظلت جين تمحوق بالياب كاتها ماتزال تلحح شبح الدوق بتخايل على الحشب اللامع.

جلست في مقعدعها وراحت تفكر هل من المفعول ان يتسكن رجل مجهول في اقل من ساعة من احداث انقلاب في حياتها. شعرت بجفاف



في لهما فسكيت مزيداً من الشاي. كانت الشمس تسرب من النوافذ  
وتعكس نورها المرتجف على ابريق الشاي الفضي.

من الجنون الاقدام على ما يطلبه الدوق فهي لا تعرف شيئاً عن  
تربية الاولاد. لقد امضت حياتها تلي اواخر عمته من دون ان يفسح  
لها في المجال لتناقش او حتى لتسأل، والا وجدت نفسها على قارعة  
الطريق.

وبصورة عفوية التهمت جين قطعة من الحلوى ثم اغمضت  
عينها وراحت تتخيل ردة فعل مارج بعد ان تعلم بان جين  
ستتركها لتعمل عند الدوق.

قمت جين في الغرفة ثم اقتربت من النوافذ العالية وراحت  
تأمل اشجار التيل الكثيفة. لكن تأملاتها لم تطل فقد دخل الدوق  
فجأة مرتدياً بذلة رمادية انيقة وقد بدا اقل عنفاً وعجرفة قال  
«الشمس اوشكت على الغروب، اعتشد بأنك تريدان الانصراف.  
سأفصل بك غداً في الفندق لاطلعتك على موعد اللقاء يأتي. هل انت  
راضية؟»

«لا استطيع ان اقول انني راضية، لكنني اعتبر ان ما تطلبه مني مهم  
للمغاية، ويمكن اعتباره بمثابة انقلاب كامل في حياتي.»

«هل ستقولين انك الاريق الى عمك، ام تريدني ان افهم بذلك.»  
«لا، شكراً. سأعتم بالامر عندما تأتيني دعوة من الشجاعة.»

«انت شجاعة ربما اكثر مما تعتقدن. سأوصلك الى السيارة واودعك.»  
تبعته جين بهنوء وهي تشعر بهوطة عينيه الساحرتين عليها،  
وبهذا التسلط الغريب الذي بدأ يمارسه نحوها منذ اللحظة الاولى،  
وبدأت تترك كم هو صعب على امرأة الصمود امام رجل قادر على ان

يجعلها تشعر بأثوثتها.

رفق شيء من الاميالة توقف الدوق مفسحاً في المجال لجين  
لكي ترمامه في اتمر الطويل الذي بدا مظلماً بعد غياب الشمس.  
وعندما وصلت جين الى السيارة قال لها الدوق:

«الى اللقاء يا انسي. ارسلي البرقية وانتظري اتصال الغانفي.»

انفلتت السيارة بجين وبقي الدوق واقفاً على سلم القيللا حتى  
غابت السيارة عن الانظار استرخت جين في مقعد السيارة الخلفي  
وراحت تستعيد وقائع هذا اليوم الحافل.

حيم الظلام على المدينة وبدأت اضواء المرقأ تلمع على صفحة الماء  
عندما دخلت جين الفندق. توجهت الى مكتب الاستقبال وابلغت  
الموظف انها لن تسافر وانما تود الاحتفاظ برفقتها حتى اخر الاسبوع.  
كما طلبت القاء الحجز ثم كتبت برقية الى عمته قالت فيها:

«احتاج الى عطلة تمتد اسبوعاً. كل شيء تم كما اتفقنا. قولي للارين  
ان تظمن.»

توجهت جين الى غرفتها وألقت يدها على السرير. ثم خلعت  
حذاءها وراحت تؤدي رفصة الهنود الحمر على السجادة السمكة فلاول  
مرة تتحدى مارج. وهي المرة الاولى كذلك التي تشرد فيها بتعريض  
من رجل. وأي رجل! انه سيد مجتبع، ثري وجذاب. يعرف كيف يخضع  
المرأة وكيف يجذبها اليه. ان هي اعجبته او يدخل عنها اذا لم تكن في  
مستوى تطلعاته.

كانت جين متأكدة من ان برقيتها ستغضب مارج وكذلك  
الارين التي كانت تظن ان الدوق سيهرع اليها منرسلاً ان تعود.  
ولكن للمرة الاولى في حياتها ستنصاب هذه الفتاة الطائشة بخيبة

ثم وقفت امام المراة تأمل نفسها انها تشبه مراة لا تزال البراءة في عينيها. اخذت صور الماضي عَزَّ في خيالها. لم تعرف يوماً كيف يكون الحنان وماذا تعني المحبة. كانت وهي طفلة تشعر بالنعاسة وتُسَكِّي وحيدة. لا من يؤمِّي او يعزِّي او يتجاوب مع احلام الطفولة وتذكرت كلمات لأوغار ألانين:

«منذ طفولتي لم اكن حيث كانوا ولم ار ما كانوا يرون».

نظرت حين الى ساعتها ووجدت ان وقت العشاء بات قريباً. عليها اذن ان تهَيء نفسها ولن تتضايق ان هي تناولت العشاء وحدها. فقد اعتادت على ذلك بسبب رحلات مارج المتعددة.

اخذت حين حماماً ساخناً وارادت فستاناً بسيطاً ثم نزلت الى مطعم الفندق وجلست وراء مائدة في إحدى زوايا المطعم. فهي لا تهتم بأن تلفت اهتمام الآخرين. لكنها تساءلت: كيف يكون تصور المراة التي تتناول طعام العشاء مع الدوق بيثرو واجابت نفسها: ستجد ان الجميع يعاملونه وكأنه سلطان زمانه ويعاملون رفيقته كأنها سيدة النبيلات.

وفي اليوم التالي انتظرت حين بقارغ صبر اتصالاً هاتفياً من الدوق. كما وعد، لكن بدون جدوى. وكانت قد امضت النهار جالسة في شرفة غرفتها تأمل الشاطئ وتستعيد كل ما حدث لها منذ ان جاءت الى البرازيل الى ان وافقت على العمل عند الدوق. ولم تشعر الا وقد حل الظلام فراحت تسأل: هل غير الدوق رأيه في اي حال اذا لم ينصل بي غداً سأعود الى لندن.

عندما استيقظت في اليوم التالي بعد ليلة مضطربة هالما بحيرة الشعور بأنها لن تستطيع مواجهة الوضع المخرج الذي وجدت نفسها فيه، ولاحظت ان كل ما تذكره من مال يكفيها لقضاء يوم واحد في الفندق.

بعد ان تناولت فطور الصباح في شرفة غرفتها. قررت ان تدعب لشمسي قرب المرقأ ثم تتوجه الى الشاطئ. تستريح على الرمال الناعمة. ارتدت ملابس السباحة بسرعة ووضعت منشفة في حقيبتها.



وهنا رمت جين فاكتبتها وهرعت نحو الصبي وانتشلتته من حيث كان عرضة لأن تلتطمه السيارة. ثم سمعت الصوت العنيف الذي يحدثه كبح العجلات فجأة.

خرج من السيارة رجل طويل القامة وقال بغضب:  
«ماذا تفعلين هنا؟»

فوجدت جين بصوت الشخص الذي يكلبها فالتفتت وإذا به الدوق يبدو.

ثم ألكت اعصابها وقالت:

«خشيت أن يحصل مكروه للولد. كان يطارده الكرة ولم ير سيارتك.»  
كان الولد يسكي ويصرخ محاولاً التخلص من قبضة جين والالتحاق بجذته التي كانت تركض نحوه محاولة اختراق الجمهور المحتشد وسط الطريق.

تجمع المارة حول جين وراحو بريشون على كتفها مهنئين إياها على شجاعتها. وسعدت بعضهم بشرح الدوق ما حصل ويقولون:  
«هذا الفتى السائح انقذ الولد.»

هذا الفتى؟ وتطلع الدوق إلى جين التي ظنّها المارة فتى ولاحظ مدى التغير الذي اعتبرها في يوم واحد، ودعها إلى سيارته الرمادية، وأدار المحرك وانطلق.  
قال الدوق:

«لم أكن أتصور أن يكون لقائنا الثاني مأساوياً كالأول. فإذا شعرت عندما ظنك الآخرون صبيّاً شجاعاً؟»  
«لا أعرف بالضبط المهم التي ساعدت هذا الصبي وانتدته من الموت.»  
«والآن... أما زلت تعيرين نفسك حياة؟»

## ٤- الطريق إلى تريستاو

كانت جين سعيدة وهي تمشي وجدها في هذا المناخ الدافئ. راحت تستكع في الشارع الرئيسي وتتأمل بأعجاب البضائع العديدة الملونة الموضوعة في واجهات المحلات. الحجارة النادرة والمدايق المرصعة. ولفت نظرها صندوق مجوهرات من درع السلحفاة، ومزين بالياقوت الأصفر.

ثم راحت تمشي في الشوارع المؤدية إلى أماكن لا يمكن وصفها. حيث تنتصب شجيرات النخيل هنا وهناك. وشلالات من النباتات الملونة المزروعة في ألوان قهقريّة تشلّ من شرفات البيوت.

جلست جين على أحد الحواجز البحرية وأخذت تلتهم السمكة التي اشتريتها من صياد بدا لها وكأنه أحد القراصنة. وأخذت تتأمل البحارة يفرغون ما في زوارقهم من أسماك مختلفة الأنواع والأحجام. لاحظت جين امرأة عجوزاً تبيع الفاكهة. فذهبت إليها واشتتت فاكهة تحبها لتتناولها بعد الغداء.

وفجأة شاهدت ولداً يعبر الطريق المتعرجة بسرعة قصوى ماعياً وراء كرة حمراء. وإذا بسيارة فخمة تتقدم من غير أن يرى سائقها الصبي.

«الشجاعة أو الجبن غير مرهوتين في حادث معين. كلاهما موجود في مكان ما داخل الإنسان».

أولف الدوق سيارته أمام أحد المطاعم وقال هامساً:

«هل تناولت طعام الغداء؟»

«أكلت سمكاً وفلاكهة وكان الغداء لذيذاً».

«لا أظن أن هذه الوجبة تكفي لفناء مرافقة تحتاج إلى كمية من الطعام تساعد على النوم».

«أنا في الثانية والعشرين من عمري يا سيدي الدوق».

«أعرف أنك مازلت شابة ليس هذا هو المهم هل تحبين تناول طعام الغداء معي؟»

«لا أظن أنني استطع مرافقتك في هذه الثياب. فقد لا أكون الرقيقة المناسبة».

«لماذا ذهبت لتزوين بدلاً من أن تنتظري مكافئي أفانطية؟ اتصلت بك عند الساعة التاسعة والنصف صباح اليوم. قليل لي أنك ذهبت إلى الشاطئ».

«اتصلك بي كان بعداً ليوم أمس. وقد أمضيت النهار كله انظره. ولم أخرج إلا اليوم وفي نيتي أن أسبح. حتى شاهدت هذا الصبي يتعرض للموت. وركضت وراءه».

«لم استطع الاتصال بك أمس. فقد انتهكت في قضية فثارة لتسي ما حصل وتعالى بتناول طعام الغداء».

كانت جين تنظر إليه بعينين واسعتين مذهوشتين. فقد كان مصمراً على مكانتها كما وعددها. وقال:

«هل كنت تفضلين أن تكوني رجلاً بدلاً من امرأة؟»  
أجابته وهي ترفع كتفيتها.

«ربما. من الأفضل للجنس أن يكون صيماً».

«هل تعتقدين أن الرجال أكثر إناس قساوة. وأقلهم حساسية؟»  
بدأت ملامحه تأخذ تعبيراً غريباً وهو ينظر إليها.

«نعم. يتقصص معرفة الكثير من الأشياء. يا فتاتي. وأول شيء هو ألا تحسري على انرشك. فذات يوم سيأتي رجل يبدي سعاده بأنك امرأة».

«صحيح» قالت في ماذج مرة أن أحد أصدقائها قال عني أنني أشبه الحيتة. أنها كائن خرافي في بلادنا. تسمع بها ولا تراها أبداً. وتقوم بمهمات غير حسنة».

«أذن أنت خرافة وليست حقيفة».

«وشدّ الدوق بيده على كتفيتها. ولم تقدر جين أن تتخلص من يده وقال:

«أنت إنسانة تحس كأنسانة حقيقة... أوه. أنك ترهقين. ألا تحبين أن يمسك أحد؟ هل تشعرين بأحاسيس جديدة لم تشعرين به من قبل؟»

«بطبيعة الحال لأن أحداً لم يلاحظني من قبل».

قاطعها الدوق قائلاً:

«هيا تناول بعض الطعام. ثم تذهب وتقابل تريستاو».

«اليوم».

«اليوم بالذات. أنه موجود عند إحدى صديقاتي. سنقوم بزيارة بسيطة ولن نقول لأحد أنه من الممكن أن تصيحي رفيقة تريستاو. لا يجب أن يشعر بخيبة الأمل مرة ثانية. ليس كذلك؟»



«بالطبع».

نزلت جين من السيارة وانتظرت الدوق امام مدخل المطعم الذي كان يدعى الوردة السوداء. بينما كان يوقف سيارته ويبين لها كم توه ان تحصل على هذه الوظيفة.

«انا سعيد، يا آنسة، داير، لمعرفتي بأنك ستخاطرين بحياتك من اجل ولد مجهول. ربما سمعت عن الحالة السياسية التي تهدد بعض المناطق في البرازيل. ليست كما يجب ان تكون. وانا غير موافق على الحكم الحالي. اذا وصلت عندي...»

«افهم يا سيدى، انى اعمدك ان اهتم بابنك كل الاهتمام. هذا اذا اعجبتك. لأننى اسأل نفسي ان كان سيقبلني تربسلاو»  
«وانا ايضا اتساءل، يا آنسة، لكننى اقول لك مرة اخرى ان تقلمي عن عادة التقليل من قيمتك. لاشك انك كبرت وتداخلت الرغبة في النسيب بابتة عمك، لكن كونى متأكدة انك لو كنت تشبهينها، لما كنت الآن معى في هذه اللحظة».

«هل تكرهها الى هذا الحد»

«لا يمكن لأحد ان يكره انساناً لم يحبه من قبل».

القت جين نظرة خاطفة على النوق بينما كانا يدخلان الفندق. المكيف الموائى يبور في سقف المطعم والخدم يرتدون المربول الأبيض ويحملون الصواني مسرعين. تغمر الجو رائحة ذكية تقروح منها نكهة التوابل. امتدت الفاكهة الموسمية المخلبة على طاولة كبيرة في عرض المطعم.

أسرع صاحب الوردة السوداء لمقابلة الدوق، معبراً عن سعاده بتدويمه الى مطعمه. واجلسها امام مائدة على انفراد قرب إحدى

التوافذ. وبحركة من اصابعه، اصدر اوامره لأحد الخدم ان يهتم بطاولة الدوق ومعرفته ما يريد من شراب وطعام».

«هنا شرف، يا سعادة الدوق».

احنى الرجل امام الدوق للمرة الثانية. ولم يتوقف عن التأمل بعينيه السوداءين اليقظتين. قامة رفيقة الدوق التحيلة.

حجبت جين الانسامة عن وجهها. لا بد انها تبدو غريبة عجيبة الى جانب بيروفي زائسو، البالغ الاناقة. وكان بعض الزبائن ينظرون اليهم في حشوية بدون مواربة. لكن الدوق لم ينتبه لما يجري حوله لأنه كان يتفحص لائحة الطعام والشراب. هو الذي يعرف تذوق الطعام الجيد وطلب طبقين من المنبيلات الباردة والساخنة، يليها طيشان من لحم البقر المطبوخ مع البصل، البطاطا والبازلاء.

«ماذا تحبين ان تشربي. الطقس حار والليسوناخة منعشة. ما رأيك؟» وافقت جين على اخذ الليسوناخة، إذ كانت شديدة العطش. لأول مرة في حياتها، كانت جين مصدر اهتمام رجل يتسرع بهذه القسوة. انها ولا شك تجربة مزعجة ان تلحظ الفجوة في عيون النساء من حوله. حتى ولو كان الحسد مقروناً بالدهشة.

تقدمت طاولة المنبيلات امام مائدة الدوق، واخذت جين تختار يتعة ما تحب انه شيء جديد بالنسبة اليها.

سكنت الليسوناخة في كأسها، وشربت جرعة سريعة لتتغشى ظمأها. ثم انتهت ان عليها انقطار الدوق الذي قال وهو يتسرع انسامة سريعة تظهر بياض اسنانه الناضعة.

«هيا... هل سأقول لتعليمك التصرف بلباقة».

«نعم. هذا لا يزعجنى. انى اشكرك على اهتمامك بى وأنا ما زلت

متعجبة لأنك ثم تطردني يوم جئت بخير قمح الخطوبة. عندما أفكر بذلك من جديد....  
قاطعها قائلاً:

«لا نظري إلى الوراء. ابتداءً بالراحة يوم مضى، كشسعة اطفأتها الريح من الأفضل أن تفكري في المستقبل. انكري وكل ياً أنسة.  
اطاعتني حين وهي تفكر بإحاطته الأخيرة... هل أحباً ابنه لأنه أحب والدة الصبي كثيراً؟ وماذا إذا لم يتزوجها؟ ماذا جرى حتى ولد تريستلو خارج الزواج؟ كانت حين مختارة، فهي لم تعد تعتبر أن بيدرو دي زانتو أطاح بقلب امرأة ثم تبنى ابنها تعويضاً لما حصل. لا، هناك شيء آخر وراء هذه القصة... ولم تكن حين بريئة لدرجة تجهل معها أنها فعلاً على وشك أن تقع في المروى لأول مرة في حياتها وقبل أن يحتل الحب قلبها فوراً مغادرة بيدرو دي زانتو في اليوم نفسه ستهب لرؤية ابن بيدرو كما وعدت. ثم تشرح للدوق أنه عليها العودة إلى عملها مع مادج وإنها تأسف لعدم قدرتها على البقاء».

«إذا، يبدو أنك ذررت المدينة. هذا الصباح»

انقضت حين، وهي تسمع صوت الدوق الحاد الجذاب يصحبها بجأ من تفكيرها. نظرت إليه واستنعت الشفقة في عينيه الرخيف قلبها. ترى لاحظ ما يجري؟ لاشيء يتعلها إلا إذا اكتشف

«ماذا حصل؟ هل أنت خائفة؟»

«لا، بل أفكر بهمني... علزاً»

ابتسم ابتسامة سريعة وقال

«تشجعي، الطعام حاضراً وأرجوك أن تتذوقي هذا اللحم الطري

واعطني رأيك فيما بعده

كان اللحم لذيذ الطعم مع البصل المفلي. ولأول مرة تتذوق حين البطاطا المصحوبة بالبالزلاء والطبخة في صالصة البهار. وبينما كانا يتناولان الطعام ويشريان القهوة السوداء، أخذ الدوق يكلمها عن بورتودي زانتو، وأخبرها أنه من سلالة الدوق بيدرو الذي كان أحب راحة من اللواتي اختطفهن الفراضنة. وكانت فديتهن ججارة كريمة.

«هذه القصة العاطفية تحصلك. اليس كذلك؟ لا شك لك تفكرين بتصور هذا الدوق الطاغى الذي عشق تلك الراحبة الرقيقة ولا بد أن هذه القصة تبدو شيئاً لا يصدق أو خرافة اقهاهي بالفعل قصة واقعية فقد حرز الدوق حبيبته لكنها لم تترك سلك الرهينة. فتزوج امرأة أخرى وورثت عائلتها أمواله الطائلة وكانت تمتلكه عند حسن شواطئه الامازون».

توقف الدوق عن الكلام واضعاً يده على وجهه مظهرًا خائماً ذهب حفر عليه العصر الذهبي. لا بد أنه خائماً مصنوع على يد جوهري من العصر القديم.

ثم عاد واكمل:

«واليوم، الحياة القسى لأن الانسان يعتقد أنه أكثر قدراً».

ثم أضاف:

«الآن وقد تناولنا طعام الغداء، ستهب لزيارة صديقة لي، السيدة فيليسيا دي ايفانجيل، التي عالجت شفيقتي قبل أن تتزوج من كاسترو دي ايفانجيل، الشاعر المجهول. هي وكاسترو لم ينجبا أولاداً. وفيليسيا تحب رفقة تريستلو وهو لا يحب البقاء وحده في



فيللا الصخرة. وهكذا كنا اجتمع الى الساحل، لأقوم ببعض الاعمال،  
التي به لزيارة فيليبيا. وانت هل اعجبتك فيللا الصخرة؟»

قالت جين معترضة، لكنها كانت مهتمة بكل ما قاله الدوق عن  
صديقته فيليبيا:

«نعم. بالفعل ان هذا المنزل يستحق اسمه، بما جعل مادج تدعوه  
حصناً».

«اه، صحيح».

تلاأت عينا الدوق وقال:

«لا بد ان عمتك فكرت بأنني سأعامل ابنتها الجميلة  
كسجينة... سيكون متعباً للغاية اذا جئت وعملت عندي ليس كذلك»  
اجابت جين بحزن

«وستغضب عمتي غضباً شامخاً حتى انها بدون شك لن تعرف  
عليّ، فبعد الذي حدث، لست ادري اذا كنت ابصر في عقل و...»  
وسألتها بنظرة تهكمية:

«وهل من الحكمة ان تظلي ضحية انسانة طاغية؟ وهل تحسبن ان  
أكون اكثر استبداداً منها؟»

نظرت جين اليه بعينها البريتين ورأت على وجهه كل  
السحر... وانتابها الدعور:

«أكون حقا، لو اعتبرتك انساناً سهل الطباع يا سيدي، على كل حال  
فلا اعتقد انك تحتل الاغبياء».

اعترف قائلاً:

«لا. حتى ولو انني اراك تصرفين ببعض الغباء اذ وضعت كل  
اخلاصك في عمتك وانتهت، كما انني في الوقت نفسه، لا اعتبرك امرأة

طائشة غير قادرة على التكيف مع عادات البلد، او مع القوانين التي  
يجب مراعاتها داخل منزل».

اشار بيده الى صاحب الفندق ثم دفع الحساب.

وخرج الدوق مع جين من المطعم و نظرات الزبائن الفضوليين  
تتبعها حتى غابا عن النظر، لا احد من الذين يعرفون الدوق تجرأ على  
محادثة، وهو يرقب الطاولات رافعاً رأسه.

كانت الحرارة في الخارج قد ارتفعت بعض الشيء، لكن مكيف الهواء  
داخل السيارة كان يعمل بصورة مستمرة، حتى وهما يتناولان الغداء  
داخل المقطم. وما دخلا السيارة شعرت جين ببرودة الجو وانتعاشه،  
وبدأ قلبها يتسارع بالهتفان عندما ادار بيثرو المحرك والتجه  
بالسيارة نحو الطريق.

كانت السيارة قد اجتازت حوال كيلومترين عندما كف الدوق عن  
صيته فجأة وسأل جين:

«هل انت متوترة؟»

«قليل».

«ليس شيئاً مزعجاً ان تتعرقى الى ابني... اعتقد ان لارين اخبرتك من  
قبل انني لم اتزوج احداً من قبل. وان تريستاو ابن غير شرعي، ربما  
ازعجك ذلك، انت الفتاة المحافظة...»

«اذا اردت ان تعني بذلك انني حاقدة على الوئد بسبب علاقة والده،  
أؤكد لك ان ذلك خطأ. انني فقط اخشى خيبة امه عندما يراني، هو  
الذي تعرف الى لارين واعجبه شكلها. اعرف تماماً انني لست جميلة.  
وكون تريستاو ابنك، سيدي، فلا شك انه ورث عنك ما تحب او لا  
تعجب».

«انه بالتأكيد من آل زانتو، لكن، هل سبق وأظهرت لك انك لا تعجيبني؟»

«سأقوم بالعمل عندك ولذلك فلا انتظر منك ان تشعر تجاهي بعاطفة شخصية. يكفي ان تراني كقوة وثق بي.»

«لا يمكن لأحد ان يشك بانك لمحاوئين الاغراء يا أنسة...تعرفين ان ذلك يحير الرجل عندما يجد نفسه فجأة امام فتاة شابة لم تلم حتى الآن بأي مغامرة عاطفية. لا شك ان الاشياء الناعمة جذابة مثل الحديقة المسيجة... او النبع تحت الارض... او عين ماء مغلقة. الا تعرفين تشيد سلوان؟»

«ربما قرأت ذات يوم.»

وشعرت حين بازعاج لم تعرفه من قبل. وبدأت تتسائل ان كانت يراها ستوظف الذهب في الدوق.

قالت بتعجب وهي تشير بيدها:

«أوه، انظري اليس هذا رائع؟»

ادار نظره نحو الكنيسة الواقعة على سفح الجبل. جدرانها بيضاء، ويرجعها العالي الضيق، ترتفع هنا، على حدة، بسلام، انها صور ستبقى محفورة في ذاكرة الفتاة.

قال الدوق موشوشا:

«انها كنيسة دير البائمة الناعمة. جرى تدعيم البناء القديم وحرقه منذ القدم. وبنيت هذه الكنيسة من جديد. في المكان نفسه.»

«لا شك في جمالها.»

اجاب بصوت جاف:

«نعم، هل تجذبك الاجراس. الصلاة وحياة الرهبنة؟ أولاً، لا بد ان

تصحبى صديقة لأختي التي دخلت الدير في البرتغال. منذ بضع سنوات انها شقيقتي الوحيدة. واختارت هذا النوع من الحياة بعدما قتل خطيبها في البرو. كان عالم آثار ولقي مصرعه خلال التنقيب حيث تهدم حائط عليه.»

بعدما انتهى الدوق كلامه، وصلت السيارة الى باب حديدي تابع لمنزل خاص. انه بيت صديقته، السيدة فيليسيا دي ايفانجيل. وبدت الحديقة، المزينة بشتى انواع الزهر وبثايل الرخام، كأنها استقبال احتفالي.

توقفت السيارة قرب السلالم التي تؤدي الى المنزل ذي الحجارة الزهرية اللون.

وكانت النوافذ العالية تغطي جواً شرقياً وباب المدخل مزخرفاً وجميلاً.

هذا المكان المثلء بالسحر، يسقط عليه الهدوء والسكينة، وشعرت حين كأنها موجودة في قلب البرتغال.

التفت عيناه بعينها وبدأ على وجه الدوق ابتسامة شاحبة.

«سعدك انك ترعفين بعض الشيء. اني لا اذكرك انك ارجعت هكذا في لقائنا الاول.»

«هذا مختلف تماماً. فلم اذهب يومئذ الى منزلك تحت طائلة القبول او الرفض.»

«معك حق. كنت تتوقعين مني الغضب وهذا من السهل التغلب عليه. اما الآن فعليك مواجهة ولد منقلب الاطوار. وما ان الوقت قد حان»



ولا يوجد في البرازيل كلها حديقة أجمل من حديقةك، تشعر الواحد أنه  
موجود في البرتغال».

«هذا لطف من لطفك، يا بيدرو».

ورفعت السيدة دي إيفانجيل وجهها الذي يشبه زهرة غريبة تقبل  
أمام ابتسامة الدوق الحارة وقالت:

«ما زال كاسترو في الباخرة، وكم كنت سعيدة برفقة تريستاو».

وبينا كانت جين تستمع إلى الحوار الذي يدور في لغة إنكليزية  
صحيحة، كالمداولة غالباً بين الأمريكيين المثقفين، لمحت الصبي  
الصغير جالساً كعفريت على أحد جدران الدار المنخفضة. كان ينظر  
إليها وابتسامة خفيفة في عينيه الثلاثنتين كالذهب في ذلك الوجه  
الصغير الساخر، وبقربه هز أبيض يرتدي عقداً أزرق يتدلى منه جرس  
صغير، ويومه كلها داعب الصبي قروته اللاسعة.

وكلما التفت نظرهما ينظرون، كان قلبها يتقبض.  
«دانة دايرة»

انفتحت جين حين سمعت الدوق يتأدبها، فالتفت إليه، وبدا  
التعقل مستحيلاً إذ شعرت برغبة البقاء قرب الدوق وابنه. ولأول مرة  
في حياتها تريد شيئاً ما بكل قواها. وكأنها مصيرها متعلق بيدي هذا  
الولد اللتين كانتا تداعيان الحر الأبيض.

قال الدوق بصوت غلب:

«فيليسيا، هذه الفتاة التي كلمتك عنها هاتفياً، ترغب بالعمل في  
البرازيل والتفتت بها عندما جاءت برسالة من قبل ابنة عمتها، إنها  
تدعى جين دايرة».

## ٥- حيث تلتقي الغابة بالادغال

كان الجو متعشاً ومضيقاً داخل البهو الواسع. وبالفات الزهر  
موضوعة في المزهريات تنصهر الطاولات والرفوف، وفي وسط المدخل  
درج حجارتته من الخشب اللينكي المصنوع في البرتغال، وقد رسمت  
عليه المناظر الطبيعية والأشخاص. كانت جين تنظر باعجاب إلى  
هذا الأثاث الأنيق، عندما جاءت خادمة شابة تقودها إلى رواق ذي  
قناطر يتصل بالدار، حيث النباتات المزهرة تسبقت الجدران.  
الفراشات والزناجير تملأ بين الشجيرات. وهنا وهناك المقاعد  
الحديدية المسبوكة والمطوية بالأبيض، والمزخرفة. وهذا النوع تتميز به  
أمريكا اللاتينية.

كانت لخطوات الدوق صدى على الأرض. وانتصبت امرأة كانت  
جالسة على أحد المقاعد واقتربت من الدوق وهي قد يدها للسلام.  
وللحال شعرت جين بأنقتها وجلابيثها. شعرها الاسود مرفوع بشكل  
كعكة. ابتسمت عند اقترابها من الدوق بيدرو ذي زانتو.

«عزيزتي، ما أجمل رؤيتك بهذه السرعة».

انحنى الدوق أمامها يقبل يدها.

«وانت أيضاً، ما أسعدني برؤيتك يا عزيزي، فأنت دانتها بهجة للعين،

«أنا سعيدة بمعرفتك، آنسة داير»

نظرت فيليسيا دي ايفانجيل الى جين وجهاً لوجه. كانت تبسم وعيناها تبحثان فيها عن تشابه مع لارين.

«ما الذي دفعك للبحث عن عمل في البرازيل، يا آنسة الصيف على الابواب والحارة تصل عالية الى حد الارهاق، وانت لا تشبهين التواني نراهن على الشاطئ، وقد اسودت بشرتكن من جراء تعرضها لأشعة الشمس»

ابتسمت جين ابتسامة خجولة ومتوترة وقالت:

«يسعدني ان اعرف عليك، يا سيدتي. ان منزلك من اجل المنازل التي لم ازل مثلها من قبل»

«شكراً جزيلاً»

وبدت عينا فيليسيا السوداء اكثر دفئاً وتابعت قائلة:

«هذا المنزل من الطراز الحديث. انه مجمع حقاً، ويشبه المنازل البرتغالية بكل تفاصيله. انا برتغالية، ولد زوجي في البرازيل، مثل ييروزو.. مثل حضرته»

الفت فيليسيا دي ايفانجيل نظرة سريعة على الدوق. لأنها لم تعرف بعد كيف يعامل الدوق ابنة عمتها، خطيبته السابقة لكن الدوق كان ينظر الى ابنة ولم يلاحظ طجة السلوك في صوتها.

«تعال يا تريستاو وقابل صديقة جديدة. انها فتاة شابة من انكلترا، وربما تبقى معنا لتعيش في الصقر الذهبي»

«أذا، يا ابي، ستتزوجها»

كان صوته الناعم الواضح اشيء يصوت عصفور. وشعرت جين بغضب في داخلها، وأجست برغبة الحرب قبل ان تلتقي عيناها عينا الدوق من جديد.

اجاب الدوق بشرة مجردة:

«اعتقد انك تفضل ان تكون الآنسة صديقة لك، صديقة حميمة، معها يمكنك استكشاف الغاية والنتيجة على الشاطئ، وانت على ظهر جواد، وهي ستحرك كل شيء عن بلاعها وتتركك على الدروس الانكليزية قبل ان تذهب الى المعهد الذي درست انا فيه»

«حيث كنت تلعب الركبي يا ابي؟»

وحدث تريستاو بعينه الذهبتين في وجه ابيه. وشعرت جين بالراحة الدوق الاليم. هذا الرجل الطويل القامة الذي كان يبدو سيد نفسه.

«نعم، يا عزيزي. هناك في المعهد حيث ستكون تلميذاً افضل مني. تعال، يا ابي، وسلم على الآنسة داير»

اتسل الصبي مطيعاً والده، ووصل وهو يهرج، واستجعت جين قواها وجاوت جاهدة الايتسام.

«تهارك سعيد، آنسة داير»

مذا تريستاو يده، ورفع صوبها وجهه الصغير وعيناها الرصينتان الخائفتان

وفكرت جين في لحظة سريعة انه لا يشبه الدوق شيئاً أكيداً بل ربما يشبه والدته.

«أنا سعيد بمعرفتك يا تريستاو، أمل ان تصبح من أغزر الاصدقاء»



شدت جين على يده وشعرت بخفقة صغيرة في قلبها عندما سحب يده ولم يتسم لها اكتفى بأن حلق بها. وتأكدت جين كالي التأكيد انه كان يقارنها بأبنة عمها لارين.  
لا شك ان روح النكتة التي تسمع جين بها انفذتها مرأت عدة من المواقف المرحية، فقالت:

«ارى انك تحب الفطط. وانا احبها كذلك. لأن الكلاب غالباً ما تكون كبيرة الحجم كأنها ستلتهمني دفعة واحدة»  
«عند أبي كلب يعيش معنا في البصر الذهبي، لن يعجبك. وعندما ينتصب يتصيح بطول أبي، وفي الغاية اسود ايضاً. تأتي أحياناً قرب المنزل»

حسناً، فكرت جين لقد رغبت كثيراً في الوصول الى هذه اللحظة. اجابت

«العيش قرب الغابة المتوحشة مشير الاهتمام، لكن بالنسبة الى لفتاة انكليزية البفتة مثلي فالأفضل ان تعيش في بلادها. انى اذا شاهدت اسداً قريباً مني. سأصاب بالذعر، دون شك»

نظر تريستاو الى عيني جين بهياس وقال:  
«لم ارم من قبل اى انسان ذو عيون خضراء. عادة الفطط فقط»  
قال الدوق بشاوة ملطفة:

«تريستاو، انسيت حسن التصرف»  
«لكن، يا أبي، عيناها خضراوان»

وابتسم الصبي وقال:  
«اننى اراهم ان الأئمة دايرو قوة اذا داعبها أحد»

ضحكت جين هذه الملاحظة. ولما رأت التقلص على وجه الدوق قالت بسرعة:

«انك على حق، يا تريستاو، هل تريد اختيار ذلك؟»

مدت جين ذراعها التحيلة نحو الصبي وقالت:  
«داعيني، وترى»

تدخل الدوق وقال:

«لن تفعل شيئاً كهذا»

التفت الدوق نظرة خاطفة الى جين، فيها لمحة غضب غريبة.  
«لا تشجعيه على التظاهر بقلة الاحترام، يا أئمة دايرو لا يجب ان يعتبر ان رفيقته لعبة يمكن ان يلاعبها بالشرية نفسها كما يلاعب قطاراً اودمية»

اجابت جين في جرأة هائلة:

«ومن جهة ثانية يا سيدي، لا اريد من تريستاو ان يعتبرني انسانة حزينة نسيت طفولتها؛ الاولاد يستمعون بعشرية مبالغه مع لعبهم وكذلك ايضاً مع الاشخاص الذين يعيشون معهم. انى لا اعدك بانى سأكون وصيفة لأهلك. كما في القرن الماضي، اذا كان هذا ما تتوقعه منى. لا يمكننى الا أن اكون نفسي»

ولدى سماع الدوق هذه الكلمات، قطب حاجبيه المربطين فوق انفه المنقطر... ودخل خادم يحمل صينية عليها بعض الاطعمة الخفيفة واذا بالسيدة غيليسيا دي ايفانجيل تدعو الجميع الى تناول طعام العشاء

تعالوا: الطاولة حاضرة. الشاي والحلوى مع الكريما وكعكة الفريز

ومجموعة من الفاكهة»

«يبدو لي، يا آنسة، دأير، أنك لست الانسنة المترفة التي يجب أن

أختارها للسهر على تريستاو»

«من حقا أن تذكر ذلك، يا سيدي»

نظرت جين في عيني الدوق، رافعة الرأس، مستعبدة قائما لمجاوبته،

«نعم هذا من حفي ما رأيك يا فيليسيا هل هذه الفتاة بعينها الحضرانين تصلح حقاً لتكون موضع ثقتي»

ردت فيليسيا وهي ترمق الدوق بنظرة مفاجئة فيها بعض التحدي:

«بيدرو انت لم تفرده من قبل في اعطاء رأيك بأحد والآنسة دأير ما زالت شابة، لكنها تبدو انسانية ذكية ومليحة لخيلى اعتقد ان صفاتها اهم بكثير من...»

توقفت فيليسيا عن الكلام، وأبست لجين وبدأت تقدم الشاي.

أقبل تريستاو قرب جين وسألها بصوت منخفض

«هل حقاً تستطيعين المواء، يا آنسة»

كان صوت جين يحمل بحة طليعية. وأحياناً يمكنها أن تصدر رنة شبيهة بالمواء. أخذت جين تريستاو إلى زاوية منفردة وأخضت برأسها نحوه وبدأت فوه. فجأة ضحك تريستاو ونشأ بيده على يدها.

سألها تريستاو بصوت منخفض:

«هل يمكنك أن تتحولي إلى قرا»

«كلا، يا صديقي، لكنني أقتنى ذلك أحياناً»

طلعت عينا الصبي تحذقان بوجه جين، ثم القى نحو أبيه قائلاً:

«اعتقد، يا أبي، أنني سأكون سعيداً لو بقيت الآنسة معنا لتعيش في الصخر الذهبي، فهي لا تشكو من شيء»

ثم، شعر تريستاو بالوحى فجأة، وأكمل وهو يلقي نظرة سريعة إلى جين:

«أرى أنه يتقصصها الغذاء الكافي. وستحسن أحوالها إذا جاءت وعاشت معنا»

قال الدوق بترفة جافة:

«إذا علينا أن نسطحها معنا»

شعرت جين بالحزن لدى سماعها أقوال تريستاو ولكنها ما لبثت أن أحست بالارتياح عندما قرر الصبي بنفسه قبولها بينهم.

قالت فيليسيا مقاطعة حيل تفكير جين:

«تعالوا تشرب الشاي، اجلسي هنا يا آنسة دأير، وانت يا بيدرو، اجلسي تبارقا، وهذا فتجانك يا تريستار اجلس على الحافة وأخذ هذه الكعكة. وانت يا جين، هل تأخذين بعض الحلوى؟ انسحبن أن ناديك بأسمك؟ أنك صبية شابة. وهذا من صالح تريستاو ولهذا السبب أشارك. اعتقد يا بيدرو، أنك عرفت كيف تختار رفيقة تريستاو»

«ولماذا تعتقدين ذلك يا فيليسيا»

أخذ الدوق فتجان الشاي وسحب كرسياً مريحاً، وأخذ يتأمل



فيليسيا باعجاب. في ثوبها الحريري الأزرق. كانت تجلس في الظل. وكانت الاقراط الصغيرة الزرقاء تلعب في اذنيها مثل الاصداق مظهره لون شعرها الخالك السواد.  
«فقط لأنك تصرقت بتعقل. كنت رزينا أكثر من اليوم الذي اخترت. لن اكمل...»

قالت فيليسا هذا الكلام وهي تبسم بهلوه وبقليل من السخرية. ثم رجعت حديثها الى جين:  
«البي لديك اقرباء يمكنهم ان يعارضوا اذا عرفوا انك تعملين في البرازيل. يا جين؟»  
«مات ابي وامى عندما كنت صغيرة جداً حتى اني لا اذكرها. اخذتني عمتي الى بيتها وتربيت على يدها. لكن... ليس هناك أي صلة جيدة تجمعنا. وحتى مع اينة عمتي. قطبنا مختلفة تماماً.»  
ولاحظت فيليسا قائلة:

«ستفاجئ عمك كثيراً عندما تخبرينها عن خطتك. لا شك ان الوضع خرج وجارح. يا بيدرو»

«صحيح يا عزيزتي.»

«انت اذا تعرف جيداً ان الأنسة داير هي سكرتيرة عمته التي كادت ان تصبح حاتك. هل تفعل ذلك عن قصد؟ اعرف انك احياناً رجلاً حاذقاً وحاضر للأنقام. مثل بيدرو القاسي القلب.»  
«هذا ممكن يا عزيزتي.» هل تريد مزيداً من الشاي؟»

هز رأسه ونظر الى ساعة يده:

«كلا شكراً. سنعود الى الفندق حيث تقيم الأنسة داير وفي المساء علي»

حضور وليمة عشاء مع بعض رجال الاعمال. لقد مضى الوقت بسرعة. وانت يا تريستاو بعد ان تنظف يدك من الحلوى. يمكنك ان تسلم على جين وتقول لها الى اللقاء. بعد ايام قليلة ستعود جميعاً الى المنزل. وحتى ذلك الوقت عليك ان تكون لطيفاً مع فيليسا.

نظر تريستاو الى والده برصانة مما جعل قلب جين يتدفق بشعور غريب. لم يعرف الصبي امه. يمضي احياناً بعض الوقت عند «خالات» هن صديقات والده. وهو الآن يستعد لظهور رفيقة تهتم به مكان الوالدة التي يغتصدها. لا احد قادر على معرفة ماذا يجول في خاطر هذا الصبي الصغير.

نهض الصبي وغسل يديه في ماء الساقية ثم نظفها لتشفاً تحت النسي. وتوجه نحو جين. ومد يده يسلم عليها بعدما عرج على ساقه المريضة.

«الى اللقاء. يا أنسة.»

في الحال. امسكت جين بالصبي وداعيت وجنتيه بخفة وقالت:

«نعم. الى اللقاء. يا تريستاو.»

رافقت فيليسا الدوق و جين حتى وصلا الى السيارة. بينما كان تريستاو مازال يأكل الحلوى ويداعب الهز الأبيض. كان غاضباً على نفسه لأنه اظهر عاقته.

قرب السيارة الرعادية. قبل الدوق يد فيليسا الناعمة:

«انتى مدين لك للعناية التي تقومين بها تجاه تريستاو. انك لطيفة معه. حتى ولو انك احياناً غير لطيفة معه.»

«يمكنك ان تتحمل ذلك.»

وجهت فيليبيا اهتماماً خفيفاً إلى الدوق:

«صحيح أنني أعرفك منذ زمان بعيد، لكنني ما زلت غير قادرة أن أفهمك كلياً، يا بيدرو. من جهة تكون ذلك الإنسان اللطيف واللين، ومن جهة أخرى...»

هزت كتفها الجميلتين وألقت نظرة سريعة إلى جين التي جلست في مقعد السيارة الأمامي، تاركة الدوق وفيليبيا يودعن بعضهما البعض. وساور جين الشك بأن السيدة فيليبيا، بالرغم من كونها امرأة متزوجة، لا شك معجبة بالدوق أكثر مما يجب.

كان يبدو على جين أنها مستغرقة في حلم يري، بينما كانت هي تفكر أن بيدرو دي زانتو رجل رهيب. بكل برود أعضائه بأسر القلوب، وتساءلت جين إذا كان قد وهب قلبه لامرأة ما...  
«اللقاء يا أنسة دأير»

كانت السيدة دي إيفانجيل تنظر إلى جين بفضول لكن بدون عداوة. ربما لأنها لا ترى فيها الانسانية المناسبة، ولأنها تغار على واحة وسعادة تريستانو.

«شكراً، هذا من لطفك، يا سيدتي»

انسمت لها جين وهي تشير بيدها، دارت السيارة في قهمل وأبعدا عن المنزل.

وانطلقت السيارة لوقت غير قصير وهما ضامتان. وفجأة بدأ الدوق بالكلام.

«إذا اتفقتا، أنا سعيد أنك وافقت على عرضي. ما رأيك بالسيدة إيفانجيل، هل أعجبتك؟»

«نعم، إنها لطيفة جداً ومجالها ساحر وجذاب»

«فيليبيا كانت صديقة والدته تريستانو منذ ولادته، وكما سبق وقلت لك، كانت ممرضة قبل أن تتزوج»  
«و... والدته؟»

«كانت أنفاس جين متقطعة.

«لكنني اعتقدت أنها...»

«إنها ماتت»

«نعم، شيء طبيعي»

«إذاً تقولين أن ذلك طبيعي؟ إنها شابة وأنجاب طفل لا يؤدي بالضرورة إلى الموت»

«أذاً، يا سيدي، أنت ما زلت بلا زواج...»

«أريكت جين في أجابها.

«لأن الدوق بصوت بطيء»

«نعم ما زلت رجلاً عازياً وذلك بسبب المرأة التي هجرني. ماذا يا أنسة دأير، هل تشعرين بالصدمة حقاً، أن يكون للرجل ولد من دون أن يتزوج؟ لا اعتقد. أنك تفكرين مثل أولئك الذين يدينون الرجل والمرأة عندما يطلقان العنان لغرائزهم قبل أن يبارك زواجهما. لا شك أن الحب القوي موجود ولا يأبه بالخضعة أو التعتقل... ليس من الضروري لرجل أن يتزوج والدته ابنة ليصبح أباً... ربما يبدو ذلك لغزاً، هناك جواب... لكن هذا لا يعنيك»

أخذت السيارة منعطفاً ضيقاً. وكان البحر يبدو مضاءً بشمس الغروب والسحاب برتقالية اللون وجميلة. انعكس نورها على وجه الدوق



الاسمر الذي لا يتبدل. هذا الرجل قادر ان يكون ناسياً مع امرأة بقدر ما هو قادر ان يكون طيباً مع طفل.

كانت السيارة تسير بسرعة في محاذاة الشاطئ، الصخري المتعذر او تجتاز خاصرة التلال المستديرة.

وكانت يدا جين تشدان على بعضهما البعض وقلبها المضطرب يحقق بسرعة، والدة تريستاو مازالت على قيد الحياة، لكن الدوق فضل لارين ان تحمل مكانها. قال الدوق، انه لغير معقد وشعر جين أنها غير قادرة على حمله.

الجواب الوحيد المحتمل هو ان بيدرو يكره اليوم المرأة التي احبها في الماضي... لقد أبعد والد تريستاو عن حياته، لكن ذلك لم يمنعه ان يحب ابنه الى حد احتال الشائعات وقبول سعة الرجل الفاسق نتيجة هذه العلاقة.

وجين، التي تجهل كل شيء عن المغامرات العاطفية، لم يصدمها حب الدوق لمن هو من لحمه ودمه، لكنها متأثرة من استهتاره بسعادته الشخصية ومن تساونه الثروة تجاه المرأة التي اتجيت تريستاو «اما زلت تترددین.. ابتها القساة المحتشمة. في ما يخص مركزك في منزلي؟ هل انت الآن ناقصة على تريستاو لأنه ولد من علاقة غير شرعية؟»

اجابت جين في صوت ساخط ومتألم:

«لا، لا يحق لك ان تتكلم معي في هذه اللهجة...»

«عندي جميع حقوق رب العمل. كل شيء كان يبدو لك عاطفياً ما دمت تفكرين ان والدته مازالت حية. افادت عندك روح القضيلة؟»

اجابت جين باعتراف:

«انت الذي تنصرف بشاوة معي. من الطبيعي الاعتقاد... ان والد تريستاو مات. واكون انثاة حقيرة اذا تصرفت بعدائية مع ولد لأبي سبب ما انا احب ابك كثيراً، سيدي، ومتأكدة جداً من رغبتني لأكون رفيقتك.»

سأها الدوق بيرة سخرية وهو يشعل ضوء السيارة من الداخل مما أثار وجه جين الساحب والمتعب:

«لماذا اذا هذا التجار؟ لن افرض عليك سوى شيء واحد وهو ان تكبحي فضولك فيما يخص والد تريستاو. لا تسألني اي سؤال عنها، وباختصار، عليك ان تستعري في الاعتقاد أنها لم تعد حية.»  
«نعم، سيدي... هل يجب ان اطلب اذنًا للعمل في البرازيل؟»

«كلا. هذا غير ضروري. بالنسبة الى السلطات الرسمية، انت ضيفة عندي واذا كنت ادفع لك معاشاً لاهتمامك بتريستاو فهذا لا يخص أحداً غيرون.»

«لكن - سيدي، انني لا افهم. كنت اعتقد ان علي طلب اذن. انك توظفني عندك والسلطات الرسمية على علم بانني دخلت البرازيل وانا احمل القليل من المال.»

«انا الدوق المنفور دي روس زانتو. وحتى في البرازيل، رجل مثل يمنع بعض الحرية. لست مصرأ على ان تقولي للسلطات عن عملك السيء. يكفني ان تكوني ضيفة... ربما تفكرين ان يظنك الناس عشيقتي؟»

أمر وجه جين وشعرت بجرح عميق داخلها من جراء هذا

السؤال: لولا ان صورة تريستاو مازالت تلازمها لرفضت قبول عرض الدوق. لولا

قال في مزاج ممزوج بالسخرية.

«لماذا لا تقولين اني رجل شرير وثرناحيث»

«انت ، رجل شرير ، خلاصك الوحيد هو حيك لتريستاو من اجله فقط قبلت عرضك»

كانت اسنان الدوق تلعب ببريق شرس ، وفهمت جين انه لم يعين له ان سمع احد موظفيه يكلمه بهذه اللهجة وهذا الحرية كانت السيارة تسير نحو افساء المرقأ ، وساءلت جين كيف سيتصرف معها الدوق عندما تبدأ وظيقتها وبعد ان تكون قد خسرت كل اتصال مع قرياتها.

ستعتقد مادج ان جين تلاحق الدوق ، وعلى هذه الفكرة ، اخبر وجهها وعظمت على شفتيها.

هل هذا ممكن؟ هل هي حقا تقفح لمبول قلبها الذي يشدها نحو الدوق اكثر من اشتدادها نحو ابنه؟

تولفت السيارة امام الفندق حيث تقيم جين ، وبادوها الدوق بالكلام في نبرة متوقفة:

«جين ، لا يجب ان تخيب امي تريستاو مرة ثانية ، واذا غادرت سراً مثل ابنة عمتك ، سأكون مجدداً هذه المرة ، وعندما الغضب ، نصبح حياة الذي يعرضني جحياً ، هل تفهمين ما اقصد؟» اجابت جين بهدوء:

«اعتقد انك تسمع بقوة ذي شأن كبير ، وانني متعجبة كيف انك

سمعت اللارين ان تخلصي من قبضتك ، فليها الكثير تعطيعه ، اكثر مني»

«انت انساة شديدة العاطفية ، اعتقد ذلك يا أنسة ، اير ، تعتبرين ان الرجل والمرأة يتزوجان فقط اذا احباً بعضهما البعض حياً بموتاً ، والأصبح الزواج بالنسبة اليك شئبة ، اليس كذلك»  
«نعم ، بالفعل ، سيدي»

فجأة امسك الدوق يد الفتاة التي كانت تحاول ففتح باب السيارة ، واقرب منها حتى انها خافت منه ، كانت عينها الرجل محدقان في عينيها كأنه يريد ان يسحرها.

«ارجوك! يجب ان اعود الى الفندق ، اني اشعر بالتعب...»

«نعم ، انت متعبة ، وقلة وخائفة باستمرار ان تعيش حياتك الخاصة ، انت لغز يا أنسة ، اير ، لو كنت اكثر لطفاً ، لكنت سمحت لك بالعودة الى حياتك الماضية القاسية الحالية من أي خطر ومن أي روتين كذلك ، لكنني لست رجلاً طيباً ودافعي الوحيد هو الانتقام ، كما اشارت فليسيا في حديثها ، ماذا ستفعل مادج بدونك يا جين؟»  
«ان ... اعتقد انها سيتدبران امرها»

شعرت جين بالخدعة ، وانها سحينة عينية الذهبيتين ، وفجأة شعرت بالخوف ان يكشف حقيقة احاسيسها من نظرتة اليها ، فاشاحت برجلها.

«هل تسمح لي بالذهاب الآن ، يا سيدي؟ كان النهار مرهلاً ، وانت على موعد مع بعض رجال الاعمال ، اليس كذلك؟»

«هذا صحيح ، نعم انك تذهلين كزهره النihal المعرضة للشمس



الاستوائية. زهرة بيضاء اوراقها خضراء داكنة. يمتلك الذهب الآن.  
وهذا بعض المال لكي نحاسي صاحب الفندق غداً.  
اصفر وجه جين وعضيت على ثفتيها. فغلبها. يقول هذا المثل.  
واخذ الدوق يدها واضعاً فيها بعض الاوراق النقدية.  
«مستأني سيارة الى الفندق نهار الخميس بين الساعة الثامنة والتاسعة  
صباحاً. لتأخذك الى فيللا الصخرة، كوني حاضرة أسنى ومن ثم  
تذهبون الى المطار خارج المدينة وانت وترى ستار. تأخذان الطائرة الى  
العصر الذهبي.»

سألت جين وصوتها يرنجف.  
«اهذا بعيد... كل البعد»

«حيث يصب الأمزون في البحر، حيث تلتقي الغابة بالادغال»  
نزل من سيارته، ورافق جين حتى مدخل الفندق  
«ليلة سعيدة، جين»

ابتسم لها ابتسامة سريعة قبل ان يعود الى سيارته، التي ابتعدت  
بصمت وهدوء في الليل.

## ٦- لقاء البدائيين

شيء غريب لا يصدق ان يعبر هذا الجهاز الفاخر الجز الفضائي بهذا  
الهدوء الساكن... ليس في داخل الطائرة الخاصة مفاعد منفصلة يمر  
وسطى. كما هي الحال في الطائرات العادية. انما داخلها قاعة استيصال  
تحتوي على مفاعد مريحة. وطاولات صغيرة. سجادة رقيقة تغطي  
الارض. الموسيقى تنطلق من المذياع. وعلى احدى الطاولات المنخفضة  
وضعت بعض المأكولات المتنوعة، من الدجاج البارد والخبز والزبدة،  
والفاكهة والمربيات المنعشة.

كان تريستار يقرأ كتاباً مصوراً بالرسوم ويشرب قديحاً من  
الحليب المزوج بفاكهة التفاح. اما الدوق وجين فكانا يشربان  
القهوة البرازيلية. ومن نافذة الطائرة راحت جين تتأمل الغابة. انها  
بلاد خضراء غنية. حيث يجري وشاح من المياه العميقة يلعب سطحها  
كعبدن مذاب. ومن وقت الى آخر تخرق الطائرة الغيوم، حيث لا يظهر  
شيء. انه شعور غريب وممتع.

لقد تركت جين كل شيء. تعرفه، خلفها بعيداً. وها هي طائرة  
يغروحي زانتو الخاصة تأخذها الى مكان آخر وإلى حياة جديدة  
وبعيداً ايضاً. في سلة المهملات، في غرفة الفندق، برقية ارسلتها

ماوج ديسوند، وقرأتها جين في الصباح نفسه. كانت تأمر فيها جين بالعودة حالاً، فشرعت جين بالذئب وراحت تزرع ارض الشرفة، ذهاباً واياباً، متسائلة مرة اخرى اذا كانت قد اختارت الطريق الصحيح.

وهي الآن في الطائرة تتساءل ما اذا كان قرارها النهائي ناتج عن خوفها من الدوق، او ناتج عن اختيارها الشخصي.

لقد سبق ان قام تريستاو بهذه الرحلة من قبل، وهو شقوف بقراءة مغامرات طرزان لكن جين نعى في كل لحظة وجود الدوق بقرعها، وتتسعر بسحر الرحلة. العالم من فوق يبدو لها شديد الغرابة والجمال...

قال الدوق وهو يتحنى لرؤية ذلك العالم الذي يحضه: «قرب الجداول، تتسدّد التاسيح السوداء في الوحل، عيونها تثلج شذرات الذهب المطبور في الصخر، انها حيوانات بدائية، لا تتمتع بجمال الحيوانات الاخرى الموجودة في الغابة، وهي ايضاً حيوانات متوحشة للغاية».

وسألت جين الدوق وهي لا تجرؤ ان تدير رأسها الى الوراء، خائفة من رؤية عينيّه السوداءين اللتان تقتربان فيها جميع المخاطر والمخاوف المتوقعة في هذه الحياة الجديدة التي شجرت على خوضها. «ليس الأسد والنمر ايضاً من الحيوانات المتوحشة».

«فقط اذا كانت هذه الحيوانات جائعة، او مريضة. يبدو انك تجهلين ان مثل هذه الحيوانات هي اقل توحشاً من اولئك الرجال الاتانيين الذين لا ينظرون بحثان الى العذابات الجسدية والنفسية التي يعاني منها

غيرهم من الناس... يعمل لدى بعض الهنود من قبيلة الماياس. ارجوك الا تخافي منهم. مع مرور الزمن تتعودين عليهم ويصبحون اصدقاء لك. في البداية سيرتابهم القليل من التثكب. انهم رجال من جنس عريق، صنعهم من ان يصبحوا مدنيين. انهم ينتمون الى هذه البقعة من العالم. والمدنية تحطّ من قدرهم، ينتمون بجمال وصدق واخلاص. فهم اسلاف الماياس الذين كانوا يعيشون هنا عندما رست المراكب الاولى الآتية من العالم القديم... لا شك انك تحبين المطاوعة والتاريخ».

«نعم، بعض اسلافك كانوا يتمتعون بشراة متوحشة، يا سيدي». «حقاً... وانا اعترف بذلك. اما المقامرون الاسبانويون الذين غزوا امريكا فلم يتصرفوا فانها كما يرغبون، الم تفراي عن الدوق ييخرو الذي ارغمه الماياس على شرب الذهب المغلي».

ارتجفت جين لدى سماعها ما قاله. وانغمضت عينيها تتخيل هذه الصورة التي رسمها الدوق. واذا بالدوق يفهم ما يدور في مخيلتها ويقول وهو يبتسم:

«لا شك انك تتمتعين بخيلة خصبه يا جين. وللأسف انك سمحت لها ان تبقى مسجونة طيلة هذه السنوات الماضية! هيا اثربي قهوتك وتعلمي ان تحبي الحرية».

سألت جين: «هل انا حقاً انسانة حرة. عندما انظر الى عالمك يا سيدي، اشعر بقلبي بين اليحر والجمال. يحيفني بعض الشيء».

«ان ما يحيفك اكثر من كل شيء، هو جرأتك للتخلص من القفص



الذي كنت مسجونة فيه عند عمك، من أجل أن تحلقى وراء الشمس.

«ارجوك أن تنسى آل ديسموند يا جين»

«هل هذا أمر يا سيدي»

«كما تريد»

«أنت تتكلم بصورة مطلقة، كأن لارين لم تكن تعني لك شيئاً»

«يا فتاتي العزيزة، إن ابنة عمك جميلة وربما تستحق مكاناً في مجموعة

الأشياء النادرة. لكن ذلك لا يعني أنها قللك القدرة على أن تجعل

الرجل ينسى بقية النساء... هذه القدرة التي نسيها الحب. على ما

أظن... الحياة جعلني إنساناً واقعاً. ومع ذلك ما زالت اعتقد أن الحب

الحقيقي، النادر، لا بد أن يعبر طريق الإنسان ولو مرة واحدة في حياته.

وبسر نظرة واحدة، أن يحتل قلبه»

«لا يمكن أن تكون فخوراً لأنك أردت امتلاك لارين كأنها تحفة

تضاف إل مجموعتك»

«أنت قاسية جداً يا جين. أحياناً أظن أنك ترغبين ضربي بالمسطرة

على أصابعي»

«سأنت جين وفي عينها نظرة ساخطة.

«والأ، لتزوجتها من دون... من دون حب»

«اعتقد ذلك يا جين. ولكي أشكر لارين على إرسالها من يتفاني

منها أرجعت لها المجوهرات التي كانت تناسبها جداً أنني أكيد أن ذلك

يساعد آل ديسموند على التخفيف من آلامهم بعد هجرك لهم. وكما

يقال: المالئ اعز صديق للمرأة»

«آه، يا سيدي، أنت واقع للغاية»

«آل هذا الخدع»

«لا نسألني يا سيدي، أنا لا أعرف مدى خطاياك»

«ولا أهمية فضائل»

«صحيح»

«أنا تعرف بأن الدوق يمنع بيع فضائل وتأكدت من ذلك

بعدما ألفت نظرة سريعة إلى تريستاو

أن رجلاً بمقامه لا شك يمكنكم سر ولده، أو ربما يساعد على تربيته

خفية. لكن الدوق اختار الاعتراف به والمحافظة عليه بقربه في معظم

الاحيان. إنه أب صالح.

قال الدوق بسخرية:

«أنت، بالطبع، لا تمتنعين إلا بالفضيلة. وبما أنك قديسة، تتصورين

لك الحق أن تعطي رجلاً يبدو لك شيطان بعد ذاته. هل في نيتك

إرشادي إلى الطريق الصحيح وجعلني إنساناً صالحاً؟»

اجابت جين قائلة:

«اعتقد أن عملي لديك أن أكون رفيقة لتريستاو. لا أن أكون

مرشدتك»

تغذرت ملامح الدوق شكل خفي: تصلب فيه وعمر في عينيه تعبير

جارد.

«عذار، لا أريد أن أغضب! أنا أعرف جيداً أنني إنسان وقع، لكن لا

أريد أن أسمع ذلك عن لسانك. أنا خير بالحياة والناس وأعرف أن

أعجب بانسانة فاضلة. لأن الفضيلة هذه الأيام شيء نادر كالناس

الأزرق. ولهذا السبب شئت أن تكوني على اتصال مع تريستاو. لم

يحظر بيالي قبل ان اتعرف عليك ان ترينتاو بحاجة الى انسانة تكون رفيقة ومعلمة ومموضة»

توقف برهة عن الكلام وهو يحرق في جين بامعان وراح يردد: «يا ابي لا اريد ان اغضب انت يا جين، لست سوى تلميذة مازال ينقصها دروساً في الحياة، ومن العجيب ان تكون حذرة مني»  
فجأة ابتسم الدوق، ولغت اسنانه البيضاء.

«عندما تلتقي القديسة بالشيطان، يصير هناك كيريث في الجو هل تتفقين معي؟»  
«نعم»

ابتسمت جين خجلاً وهي تنظر من نافذة الطائفة وكانت الادغال تبدو لها اقل توحشاً من الدوق نفسه. احسنت بقشعريرة تسري في عروقها.

«اما زلنا بعيدين عن الصقر الذهبي»  
اجاب بهدوء:

«الى حيث يطير الصقر»

ثم وجه كلامه الى ترينتاو:

«تبدو معجباً كثيراً بهذه القصص المصورة. لست اعيداً التي على حق في السماح لك ان تقرأ هذه القصص السخيفة»  
«انها ليست سخيفة، يا ابي»

ورأت جين الوالد والولد يتطلعان الى بعضها البعض برصانة.  
«اني اقرأ مغامرات طرزان الذي كان يعيش في الادغال. كان يعرف لغة جميع الحيوانات وكان نبيلاً مثلك، يا ابي»

وفي لحظة، اصبحت ابتسامة الدوق متساعفة انه حقاً رانع مع ولده. ويمكن ان نرى النبل والاصالة عند الاب والابن معاً. الدوق انسان مثقف غريب ومتفطرس.

«وذاكرني لم تخش. فان طرزان السجاع يحب التراجع على الاشجار لا يحب عليك ان تلتفه. حتى ولو علمت انك الانسة داير ان توء كافر»  
نظر ترينتاو الى جين وعلى شفاهه ابتسامة خبيثة وقال:

«زوجة طرزان تدعى جين - يعيشان في منزل داخل الادغال، اصغر من الصقر الذهبي، بالطبع. اني اكيد انك لم تري منزلاً مثله من قبل. فيه غلابي. ودهاليز ورج لكنني كنت افضل الا يكون هناك ادراج لولبية. اذا تسلقناها لولبي ساقى. الا عندما يحصلني ابي على كتفيه»  
عاد ترينتاو الى قراءة كتابه. وخيم الصمت، الذهب جين نظرة خاطفة الى الدوق ورأته مستغرقاً في افكاره. بذل الاطباء جهودهم في معالجة ترينتاو كي يشفى بصورة كاملة، لكن المرح كان خطيراً مما ادى الى ايشاء هذا العائق الدائم.

كان هذا الحادث صدمة مؤلمة بالنسبة الى الدوق الذي يتمتع ببينة جيدة. فلا شك انه كان يرغب ان يشبه ترينتاو كل الشبه. في كل شيء.

كانت جين ترى ان ترينتاو ولد جميل وهادئ. لكنها كانت تعتبر انه - حتى ولو كان معاناً، لن يكون كوالده. ضحياً ووقوراً ليست ملاحظته متناقضة وذات تأثير كبير عندما يكبر الولد سيصبح رجلاً هزلاً ولطيفاً لكنه لن يتمتع بقوة والده على الاغراء. ولا حتى بنفوذ شرس.



لا شك ان تريستاو ورث عن والده النعمية والحنان فقط.  
فالذوق يعتبر تريستاو نصفه الجيد، فيجده، ويعتني به ولا يفكر  
بوالدة تريستاو كأن الامر لا يعنيه.

المرأة التي احبت بيدرو وانجبت هذا الولد الحساس الذكي،  
توقفت في نفس جين حشرية بالغة. ورغم تحذير الذوق فهي تحب ان  
تعرف اذا كانت والدة تريستاو امرأة جميلة وكيف انتزعتها من قلبه  
في هذا الشكل الكامل

ثم، وكأنها خافت ان يقرأ الذوق افكارها، اذثرت وجهها صوب  
النافذة وراحت تتأمل المنظر امامها.

فيجأة لاحظت غياب الانتاج الكثيفة التي حلت مكانها الرمال  
الخبراء الممتدة مساحات واسعة، حيث يزرع البن. وارتجفت قلب حين  
لرؤية هذا المنظر المؤثر: التلال المزروعة بنأ وبيجانيتها تلال نقصب  
السكر. مزارعون يمشون بالحقول ويرسمون قيعات من الفس خباياهم  
من حرارة الشمس اللاهية.

وشعرت جين بقلبيها يفتح امام هذا الجمال المتوحش، وحدثت في  
المنظر بقوة، فهي تريد ان تحفر في ذاكرتها صورة ارض الذوق بيدرو  
التي لها صلة بتاريخ مليء بالاندام. وفيها كانت شراسة هؤلاء  
الرجال الذين يكتشفون هذا العالم الجديد، لقد اظهروا شجاعة وحرارة  
لا تصدق. وجين لم تقدر ان تمنع نفسها من التأثر امام كل شيء،  
متوحش وحز. وراحت تتساءل ايضاً عن امكانية حدوث تنازع بينها  
وبين الرجل الذي يسيطر على الادغال، تلك الغاية التي تامل ليل  
نهار ضد اجتياح مزاروعات البن وقصب السكر

شعرت جين يلهب في عينيها، فهمت في الحال ان الذوق ينتظر  
اليها.

«نحن الآن فوق مزاروعات البن، اليس كذلك؟»

«نعم يا سيدي، انه لمنظر رائع للغاية.»

«انا سعيد لأنك تحبين المنظر بعد قليل سنصل الى مخرج المبوط  
اجلسي جيداً واحكسي اغلاق الحزام.»

وقب الذوق ليأكد من حزام تريستاو، ثم القى ابتسامة سريعة  
تحو جين.

«يبدو عليك الخوف، هل ان عيوب الطائرة يؤثر؟ ام لأنك تشعرين  
فجأة انك بعيدة جداً عن بلادك؟»

اجابت جين وشفتاها ترتجفان:

«انا بعيدة عن انكلترا، ان نصف العالم تقريباً يبعدنا عنها، ويجب  
الاعتراف انني غير متأكدة من نفسي.»

«بعد ايام قليلة تشعرين بالثقة، نسيت ان اسألك اذا كنت بحاجة  
لبعض اغراضك من لندن؟»

وفكرت جين بغرفتها الفارغة تقريباً، في شقة صايج في خزانة  
التياب بعض الفساتين ومعطف للنساء، لكن القسم الاكبر مما تملكه  
موجودة في حقيبتها. اخفضت جين عينيها، واجابت الذوق انها كانت  
تعيش مع عنتها ولا تملك شيئاً لنفسها.

سمعت جين صوت الازيز الذي احدثه حزام الامان، واجست انها  
على وشك الانتاج باليكاء. وللحظة واحدة شعرت انه بدأ يتقرب اليها  
ويستلطفها... هو الانسان الذي يرضي جميع اهوائها!

بعد نصف ساعة كانت جين تشعر أيضاً بالتوتر من جراء هذه الرحلة. وجلس في المقعد الخلفي. من سيارة جيپ. قرب تريستا. وكانت السيارة بسرعة وتريستا. يشير بأصبعه الى بعض التفاصيل هنا وهناك في الساحل المتعرج الذي يؤدي الى الصقر الذهبي.

سمعت جين الدوق يغير سرعة السيارة. التي بدأت بالصعود. والانشواطي. الصخرية الوعرة تشرف على رفعة رقيقة وبارزة من الرمل. يلقيها الزيد الابيض. نباتات غريبة تكتسح عجلات الجيب. اوراق تنساقط من الاشجار وتلويها حواء الشمس مثل منجل كبير. وكلها صعدوا كلها اصبحت المزروعات اكثر كثافة. الى ان ظهرت فجأة الاسوار الحجرية. والدعام الضخمة من السياج. مما يشير الى مداخل البيوت في امريكا اللاتينية.

العصافير تغزو ومن الصعب فتحها من كثافة الاشجار المحيطة بالمكان. والطريق تتعرج مثل ثقب معتم. ولما دخلت السيارة في العتمة. ابتسمت جين وامسكت بيد تريستا.

وبدا قلبها يخفق. لأنه بعد قليل.. سيظهر الضوء. وستصل الى الصقر الذهبي.

وركزت نظرها على الكنفين العريضين. والرأس الاسمر الابيض. ترى ماذا يفكر في هذه اللحظة؟ هل هو نادم لأنه اصطحب الى بيته رفيقة لابنه بدلاً من زوجة له؟

وبعد ان قطعت السيارة طريقاً متعرجة. استدارت بسلاماً. وهنا حيث جين انقاسها. فعبرت السيارة تحت قبة هائلة قبل ان تنفذ الى

ساحة المنزل القائم على تلة فوق البحر. تحيطه الادغال.

توق الساحة درجان متوازيان يؤديان الى شرقه من البلاط مشيت بركينين حجرين تزلقان قبة الرواق. وهذا النوع من البناء يعم امريكا اللاتينية. الحجارة والحديد المتشوج مشغولان بطريقة رائعة. وفي الوسط صفر من البرونز يرفع مقاره الغولادي. باسطاً جناحيه الكبيرين.

الصقر الذهبي. المنحوت داخل حجر من الصلصال يبدو ذهبياً حقاً. لكنه مغطى بالنباتات المتسلقة. ويحتم على حضبة واسعة طليقة. نزلت جين من السيارة وهي مذهولة. طبعاً كانت تستعد لرؤية شيء من العظيمة. لكنها لم تفكر ان يكون المكان مدهشاً هكذا. وامتلاً عقلياً بالصورة. صورة الغامر الاسياني الذي بنى هذا المكان. والمرأة الرائعة التي شربت المحيطات لتسيطر على هذا المكان.

على مرّ السنين. استقبل هذا المنزل نساء كثر. لكن جين شعرت ان ابواب المكان المنحوتة لم تكشف عن وجود غرف كثيرة محمية بمصاريع خشبية منحوتة. والآنية الخزفية منتشرة ومختلفة الاحجام. والخيزرة الوردية...

كانت جين تنظر مسحورة. بكثرة الازهار الليلية. ونساء اية امرأة زرعت كل هذا.

سألتها الدوق بلغة يرتفالية سهلة:

«هل انت سعيدة بوجودك هنا يا أنسة؟»

«نعم. سعيدة جداً. يا سيدي»

ولفت عينيها نحو الدوق وقالت:



«كيف يمكن ألا تحب الصقر الذهبي إذا اقتنعتنا بقليل من المخيلة»  
«صحيح، لكن عليّ أن أعرف ذلك. الإنسان الوحيد يحب البيت  
المعزل... وكما ترى، فأقرب الجيران، المحيط والغابة»  
قالت بصوت منخفض:

«أزهار كثيرة، مأخوذة من النباتات البرية الموجودة في الأدغال، ورد  
سحليبات... وكلها غالية الثمن في لندن»  
«ها زهرة مجانا»

مذا الدوق يده وقطف زهرة من شجرة النخيل التي تغطي اخصائها  
هذه الازهار الغريبة والجميلة. اعطاها الى جين. اتسحرت جين  
وهي تتأمل اوراقها الحمراء المرصعة بشذرات من الذهب. انها ناعمة  
كالمخمل، لكن لا رائحة لها. تريد حماية جانها من الحشرات والقراشات.  
واخذت جين الزهرة من يد الدوق وتبعته مع تريستاو صوب  
الرواق المؤتمن الى المنزل. لن يعرف بيفرو انها ستضع هذه الزهرة في  
دفتر مذكراتها والاحتفاظ بها مدى الحياة، وذلك تذكارا ليوم وصولها الى  
الصقر الذهبي هكذا قدّمت له قلبها الى الابد.

لحّت دعائم الحجارة المنحوتة، فجأة برز بعض الخدم يرتدون البذلة  
البيضاء ويسيرون بصمت. انحنوا امام الدوق وتريستاو. وعزّوا امام  
جين كأن لا وجود لها. اثنان منهم ذهبوا ليحملا الحقائب من السيارة.  
والثالث الذي كان وجهه الاسمر يشبه محاربي الابسكاس، بقي  
يتحدث مع الدوق الذي يعطيه الاوامر.

لم يتحدثا في اللغة البرتغالية. وفجأة تطلع الدوق صوب جين  
قائلا:

«جين، اقدم لك برميثيفو، وهو يسهر على تنظيم المنزل وسيتأكد ان  
لديك كل ما تريد. كل غمره سنتين عندما جاء الى الصقر الذهبي.  
قتل الاسد امه، فالخطر والذي ال قتل الاسد عندما كنت صبياً كنت  
اركب مع برميثيفو باخرة صغيرة وتنزل الى مصب النهر حيث  
تندفق المياه بسرعة. انت تحصلين في يدك سحلية صغيرة جميلة، لكن  
برميثيفو يعرف أين توجد السحلية الكبيرة البيضاء لاكريستالا.  
ان الخوذة الذين الذين يعملون لدي ليسوا متوحشين كما يبدوون لك.  
فهم رجال بسطاء وطفلاء. في اليد سيتصرفون كأنك غير موجودة. هذا  
موقفهم من النساء... هل تفهمين؟»  
«بالأكيد».

وجهت جين ابتسامة الى الهندي الكبير ذو الوجه الرصين، واجابها  
بنظرة من غيبته السوداءوين، نظرة كانت تلين شيئاً قليلاً. كان سواد  
عينيه يلعب كالاطلس الاسود. ونظر برميثيفو الى تريستاو. ثم الى  
جين من جديد، وفكرت الفتاة انه يعتبرها صغيرة حتى تكون رقيقة  
تريستاو.

وجه الدوق الحديث الى خادمه الهندي في لغة لم تفهمها جين، فلذا  
باغادام ينسحب بهدوء.

فتح بيدرو الباب الزجاجي لقاعة الاستقبال. ودعا جين الى  
الدخول وهو يلتفت الكليات التقليدية:  
«اعلا وسهلا، البيت يشك»  
«شكراً».

قالتها جين بصوت منخفض وهي تدخل الى غرفة رائحة وفخمة.

تفترش الأرض سجاجيد من اللون الاسمر الفاتح. والمفروشات الجميلة ذات اللون الاسود والذهبي يعمود تاريخها الى عصور الاحتلال. أطباق من الفضة والخزف الثمين تلقي اسواء والوانا على الخشب الداكن. وهنا وهناك على الجدران، لوحات قتل صور الفرسان وصور القديسين

في إحدى زوايا القاعة كنية مغطاة بجلود الثمر السمراء والذهبية. لولاها لوجدت جين ان الغرفة جميلة واحتفالية وعلى إحدى الطاولات المصنوعة من الخشب البني القائم عليه سكاكر منحوتة. كما لمت نظرها لوحة مصنوعة من الريش تظهر رجلاً تبيلاً يرتدي معطفًا برافاً، وعصفوراً مذهياً بمثابة تاج ملكي.

لاحظ الدوق جين تتأمل هذه اللوحة فافترش منها وقال: «هذه اللوحة كانت موجودة في دير الياقة النالعة، وربما تعرفين كيف دخلت هذه الى منزلي، انها من صنع امرأة. وتدل على صبر لم يعرفه عصرنا. ان كل ريشة صغيرة تشبه قطبة تطريز. هذا كل ما تبقى من قصة حب قديمة».

هل يفكر الدوق انه كان اسعد من سلفه؟ وهو يملك ذكرى حية من الحب الذي عاشه؟

ارتعش قلب جين: هل من الممكن ان تكون والدته ترينتاو قد دخلت الدبر، هي ايضا؟ الم يقل ان غاريخ آل زانتو يتردد بشكل او بآخر؟

وثب كلب صختم فجأة الى قاعة الاستقبال وتوجه نحو الدوق. انه كلب جميل، وهو رفيق الدوق الاسطوري. كان يمز رأسه وأذنيه كلياً داعيه معلمه، ويعوي مبعراً عن فرجه لعودته.

أخذ الدوق يد جين فجأة، مجبراً اياها ان تداعب رأس الحيوان وقال لها:

«هذا الزن، من البداية اظهري له انك لست خائفة. وهكذا يصبح صديقك. ارنو يشبهني، انه يحب اولئك الذين يشمتعون بالشجاعة لتجابهة خصمهم».

ولست الفتاة جلد الكلب ووبره المجعد والخشن. كيف حالك يا ارنو؟ انت كلب اصيل، انيس كذلك؟ وضك الكبير قائم على اقتلاع رأسي. هال...  
«الآنسة تحبك كثيراً، يا ارنو».

كان ترينتاو هنا، يداعب الكلب. وعندما انقضى نظرة الى جين، حتى الولد بانباه الى القاعة الطويلة المرتدية اللون الرمادي التي ينظر اليها الكلب كأنها نجمة.  
روعه الدوق قائلاً:

«خيا بعد، تأخذك في زعجة، بعد ان نزل صيفتنا الجديدة في منزلنا. تعال يا ترينتاو؟ تعال يا جين؟ منذهب الى جناح كل منكها وترى اذا كانت الاشياء حاضرة لاستقبالكما. لربما اردنا الراحة بعد هذه السفرة انطوية».

غبروا البهر، وارنو يتبعهم. ثم مسعدوا سلها جيلاً مصنوعاً من الحديد.

«لقد وصلت»  
فكرت جين بتعجب. نهياً لها انها تسلك طريقاً متنوعاً في خطوات امرأة اخرى، لتجابهة قدر ليس قدرها.



## ٧- الهدية

كان المكثف المثبت في سقف الغرفة، يبعث بأشواء انعش، كما كانت المروحة تلعب بظلالها على جدران الغرفة ذات اللون العاجي وجين مستلقية على أريكة متجدة، تستريح من غشاء هذه الرحلة الغريبة، بعدما ارتدت منزعجاً مريضاً.

والآن في امكانها الاستمتاع بهذا الضوء الساكن في داخنها فقد ذهب تريستالو الى فراشه باكراً. اثاث الغرفة منحوت من خشب الاشجار المثمرة. وشرفات الغرف تطل على مناظر جميلة يسرح فيها النظر الى مسافات بعيدة، كما تطل على بركة سياحة كبيرة.

وبينما كانت المروحة تدور محدثة خيراً متواصلاً، كانت جين تتسائل هل الصقر الذهبي مزيج ساحر من القديم والجديد وراحت عينها تستريحان في هذه الغرفة الكبيرة سفنها المزخرف باللون السكري والذهبي. جدرانها الملبسة بالخشب المذهب، تعلقت عليها لوحات خيول أصيلة وفرسان يرتدون السروج القضيبة. وفي زاوية متفرقة من الغرفة، خزنة ذخائر متعونة وبرج حمام حقيقي يحمل رفوفاً صغيرة، عليها مجموعة من التحف العاجية. هذه الزاوية تضفي على الغرفة سحراً انشويلاً، في داخلها خزنة كبيرة وسرير واسع مغطى بالقماش المخزم. دعائمه الاربعة سوداء تحمل منحوتات مؤلفة من وجوه واوراق شجر وأشخاص.

ونفع الأريكة حيث تمتد جين في منتصف القبة المستديرة لتالفة تطل على الشرفة المسيجة. وفي اخر باب يطل على حمام مستقل، بشكل دائرة، يحتوي على مغطس مرصع، يلاطه يرمز الى حب الامريكيين اللاتنيين للحياة. مصنوعة من البلور السوردي، وعلى الرفوف قارورات تحتوي على ملح خاص بالحمام، رائحته لا تقاوم. راحت جين تتسائل اذا كانت الشقة قد خصصت لأبنة عممتها لارين.

وما لبثت ان هزئت من بساطتها. فهذه الغرفة لا تتصل بغرفة الدوق. حتى ولو كان الدوق ينوي اتيام بزواج مصلحة، لما اراد بالطبع ان يلعب دور الاب، بل دور الزوج.

تظنرت جين الى اظافر رجلها، ولاحظت انها غير مطلية كأظافر ابنة عممتها. وجين لم تحاول مرة الاعتناء بجيهاها فالكتاب العادي يلزمه غلاف عادي، وهكذا دفتر مذكراتها الاخضر الموضوع على الطاولة المنخفضة قربها. وفي ما يتعلق بذلك النهار الذي لا يمكن ان نساء، كتبت جين لحظاتها وصلت سائلة الى الصقر الذهبي وانها تنوي قضاء اوقات سعيدة على ان تؤدي عملها بصورة حسنة.

حتى في كتابة يومياتها لم تكن قادرة ان تغر عما يختلج في قلبها من مشاعر حبيبة. تخاف ان يقرأ احد ما نكتبه وان يسخر من جين داير الصغيرة، الواقعة في حب رجل ذي مقام رفيع، وغنى جداً ومثلاً. يسخر جنوني، والزهرة التي اعطاها الدوق لجين هي الدليل على هذا الحب... وضعتها داخل صفحات دفترها قبل ان تذيل اوراقها. لا احد يمكنه ان يعرف انه فطفت الزهرة من اجلها هي. والان ربما نسي الدوق

سلوكه اللطيف، وإن يخطر له أن تلك الهدية قد أثرت في جين تأثيراً كبيراً، لن تنساه.

وراحت جين تفكر أنه، في المستقبل، ما عليها إلا أن تفتح دفتر مذكراتها حتى تستعيد الزهرة الذابلة رونقها وهي، حيث تكون، يمكنها بالذاكرة أن تجد نفسها من جديد في ساحة الصقر الذهبي المشمسة إذ شعرت أنها تنتمي إلى هذا المنزل أكثر بكثير من أبنائها إلى منزل عمتها حيث ترعرعت.

كانت جين في أحلام اليقظة، حين انفتح الباب فاجلت، وراح قلبها يخفق بسرعة وهي ترى الرجل، الذي كانت تفكر فيه، يدخل الغرفة. كان يرتدي سروالاً أسود وكنتزة بيضاء يشع بياضها حيال بشرة جسمه السمراء.

قال الدوق معتذراً:

«طرفت الباب، لكن لعلي كنت غارقة في النوم. قمت بنزعة صغيرة مع ارتو. والآن أريد باحتساء فنجان قهوة. وفكرت أن أشر به معك إذا كان ذلك لا يزعجك.»

لم يكن يوسع جين إلا أن تهز رأسها. لقد انخطف صوتها. حمل الدوق كرسيها من الغرفة ووضعها قرب الأريكة وجلس.

«ترى ستارو الآن في عالم الأحلام.»

كانت استان التوق البيضاء تلعب من شدة انصاعها. ولاحظ شعر جين المتشعث وممزوها الاخضر.

«ستأتي القهوة بعد قليل. هذا البين من جني الرضا، واعتقد أنك تحبينه.»

«أنا... أنا أكيدة من ذلك يا سيدي.»

وفكرت جين أن عليها الجلوس ووضع رجلها على الأرض بدلاً من أن تبقى ممددة أمام الدوق. لكن ما أن تحركت حتى دفعها من جديد، يهدوء، على الوسادة. وشعرت بعضلات يده الحارة، فاضطربت بشدة.

أمر الدوق جين بلهجة جافة:

«لا تزعجي نفسك من اجلي. جئت لمعرفة إذا كنت مرتاحة هنا ولا ينقصك شيء. هل تعبين هذا الجناح، يا جين؟»  
«كثيراً، يا سيدي.»

ومن نظراتها، فهم الدوق أن جين لم ينسب أن كان لها غرفة من هذا الطراز يبدو أن بيدرو دي زانتو يلهم ما لمجول بخاطرها أكثر من أي انسان آخر فكبر الخوف في قلبها قريباً سوف يكتشف الدوق أنه كان بالنسبة إليها أكثر من مجرد سيد.

ربما تنسأ، لين يا جين إذا كان هذا الجناح مخصصاً لأنيسة عشتك... دعيني أطمئن بآنك...»

«من غير الضروري، يا سيدي.»

«أمر.»

رفع الدوق حاجبيه ونظر إلى جين بسخرية.

ليس هناك باب اتصال، ليس كذلك؛ في التخصص التي تقرأينها، يوجد دائماً باب اتصال بين غرفة الزوج وغرفة زوجته، مما يجعل الزواج صلفاً براعى فيها العرض والطلب. يا ابنتي أنت لا تعرفين شيئاً عن رجل من فلانزي.»



« اني اعترف ان معرفتي بالرجال اجمالاً شيء قليل. »

« صحيح. دعيني اشرح لك. لو كنت رجلاً متزوجاً، لا اقبل بوجوده باب  
يفصلني عن زوجتي. فالانحداد يفرض المشاركة. انا لست ذلك الرجل  
الذي يترك باب غرفة زوجته كخادم يستعطي الجليل. أو ان  
صراحتي تجعلك. »

« نعم. »

وبدأت جين تنتظر بفارغ الصبر ان يأتي الخادم بالقهوة مرعباً.  
لتنحاشي اياحات الدوق التي تفرجه، والتي تجعلها تضطرب.  
الا يكفيها من عذاب معرفتها ان اليوم سيجيء. ويصبح الدوق  
زوجاً لامرأة غيرها. وكم ستألم عندما يجبرها مفصلاً عن طريقة حياته  
مع زوجته، التي ستكون اسعد امرأة بين جميع النساء.  
« اني اتمنى دائماً الى اي درجة من السذاجة انت. »

اجابت جين وهي تخفض ثوبها لتغطي رجلها العاريتين، هي  
التي لم تحلم ابداً في حياتها ان تكون وحدها في غرفة مع رجل عظيم  
وجذاب.

« اني سعيدة لأنني افركك يا سيدي. »

وسأل الدوق وفي عينيه ملامح ساخرة:

« هل تسألين اذا كانت برايتك في خطر حيال وجودك معي؟ »

« ورجعت جين قليلاً الى الوراء بشكل خفي. كأنها تطلب الحماية  
في الوسادة. وكأنه عرف ما يحول في خاطرها، انحنى الدوق الى الامام  
وعلى وجهه ابتسامة واضافة: »

« البراءة، تثير الرجل اكثر من المغامرة والخبرة. لكن يا فتاتي انفضي

العمر الذي تشعرين فيه بالفضول حيال الرجال. وتريدين معرفة ما  
الذي يفرقهم عن النساء... لا اعني الفروقات المنظورة. »

« اني... اني لا اشعر بأي فضول تجاهك. »

« انا اؤكد لك العكس. »

« هل جئت الى غرفتي لتحاكم مدى فضولي؟ »

« حذار يا جين، لا تحاولي معرفة الى اي مدى تفصل توأيتي. »

« هذا يعني انه يحق لك تشرعبي، لكن المطلوب مني الا أسألك عن  
اسباب تصرفاتك هذه؟ »

« نظرياً صحيح، لكن يجب ان تتعلمي كيف تتفهم بالناس. هل تعرفين  
يا جين انك تشبهين هر صغير عصبى، في ذيله مفصلة  
ساخنة... سأعمل كل جهدي لفك القيود التي تعيقك. »

اجابت جين بمحاولة ان تكون ساخرة.

« هذا... هذا لطيف منك. »

« لن تعرفي ابداً مدى لطفي، ليس من عادتي التوقف في منتصف  
الطريق من اجل التقاط هر متروك. ربما من واجبي ان امسكك بجلدة  
عقلك واحرك هزاً. »

« واذا بالدوق يحيط بيده عنق جين النحيل ويشد باصابعه تحت  
شعرها المشعث. كان يمسكها بكل قوته، وشعرت جين انها ستألم  
اكثر اذا قاومتها. »

« قال في سخرية، »

« يبدو انك تحبين الخدش والمداعبة. هذا هو الفرق بين الرجال والنساء. »

صرخت جين قائلة:

«القوة الوحشية»

«انت حقاً كتلة أعصاب! كلا، يا قطني، فالتفرق هو ان الرجال والنساء يعمون هذا الفرح من العراك، بينما القتال بين امرأتين يكون دائماً قتالاً متعباً ويؤدي الى حدوث جروح خطيرة. انظهمين، يا جين، الحقيقة هي ان الرجال والنساء لا يمكن ان يصبحوا اعداء بالفعل لأنه يمكنهم ان يصبحوا غشاقاً».

كانت اصابعه تتسحب من عنقها كحجاب نار. وكان يعرف جيداً انه المنتصر في هذه المناقشة. والتفت بلا مبالاة صوب الباب. في هذه اللحظة بالذات انسمعت طرفة على الباب. كان خادم هندي شاب يلبس بذلة بيضاء ويحمل صينية القهوة. اشار اليه الدوق ان يضعها على الطاولة قرب الاريككة. وشعرت جين بنظرات الرجل السريعة والفاحصة التي اتفقا نحوها بأمر من الدوق غامر الفرفة بسرعة. راح الدوق يشرح لجين قائلاً:

«سكوتين عرضة لفضول جميع العاملين هنا، فبشرتك شديدة البياض... انظري الى بشرتي: انها تبدو سوداء بجانبك».

الث جين نظرة خاطفة الى يد الدوق لكنها لم تكن تعني سوى حرارتها وتأثير ذراعه القوية على عنقها.

امرها الدوق بلهجة غريبة:

«تدعي القهوة قبل ان اسرت عطشاً، هل مازلت تتذكرين كيف احبها».

اجابت جين وهي تسبك بإيريق القهوة الفضي حيث حفر الصقر شعار عائلة زانتو.

«سوداء، وملعقة سكر»

قال لها في المرة السابقة عندما شربها القهوة معاً، انه يحب القهوة سوداء مثل نفسه. لكن جين ترى اليوم ان نفسه ليست خالية من المحبة والحنان، وانه قادر على القيام باعمال سخية، ان فتاعه التهكمي يخفي ووجه المرحه وشرقه، وعزة نفسه.

سكت جين القهوة وهي تلقي نظرة سريعة الى الدوق. وشعرت بضمة اذ رآته يراقبها في قوة غريبة. كانت عيناه الذهبيتان نظهران بؤبؤين سوداوين، يشبهان العقيق واللبليل. وقالت جين ملاحظة:

«يا له من إيريق قهوة جميل. انه عطلي بالفضة، اليس كذلك؟»  
«كلا، انه من الفضة الكثيفة، اللدنية، ومن الصنع الهندي والبرتغالي، وهو شغل يدوي. اما سلة الفاكهة لمصنوعة من الفضة والعاج، وكذلك طبق الحلوى انت تحبين الاثياء الجميلة، اليس كذلك؟»

اجابت جين وهي تقدم له الفتيان وتخفض عينيها لتلا تلتقي بنظرات الدوق:

«نعم... انها ميزة يتمتع بها الناس غير المحظوظين»

لم تتعرد جين على مزاجه، يجب ان تذكر نفسها بصورة مستمرة ومن أجل هئاتها، ان الدوق يدفع لها معاشاً تجاه عملها لديه. ولا شك انه يلعب دور المحقق الذكي من أجل التسلية فقط في كل حال ان حياته كانت مليئة بالنساء الجميلات الجذابات، وهو الآن يشعر بالفضول امام نوع آخر من النساء اللواتي يتمتعن بصفات معاكسة، كصورتهن التي تشبه الحر الصغير حسب رأي عمتها مارج.



ثم اضافت تقول:

«من شدة ما يستغنى الانسان عن الاشياء الجميلة، يصبح متطلباً»

«هذا تناقض! مثلك يا جين»

استقر الدوق في كرسيه، وبسط رجله الطويلتين، ثم شرب جرعة من القهوة.

«هل تذكرين والدك يا جين؟ او انك كنت صغيرة جداً عندما ترقيا»

«كنت صغيرة جداً يا سيدي»

ذاقت جين قهوتها واطافت بعض الحليب. كانت القهوة شديدة

الحرارة ولذيذة الطعم... كما الحياة

«انها لذيلة الطعم، اليس كذلك؟»

رأها تغمض عينيها للحظة تستمتع بجرعتها تماماً.

«ان ما يجعل الحياة ذات أهمية كبيرة لا يتم في لحظة واحدة، انما

يتطلب وقتاً وجهداً يا جين. انا سعيد جداً انك لست فتاة سطحية.

ساذجة. ويستحق تريستاو كل اهتمامك ووقتك وعناك. هو ايضاً

انسان حساس، قابل للألم»

«انا اكيده انه انسان شجاع، يا سيدي»

ثم اضافت غير قادرة ان تمنع حائلها من الابتسام:

«ما دام هو ابنك»

«لا شك ان دم آل زانتو يسري في عروقه، لكنني لم اكن يوماً

الانسان الشديد الحساسية، بل اخذت الحياة كما جاءت»

«هل تخاف عليه، لأنه ولد معاق»

«ذلك يجعلني قلقاً خاصة بعد ان تبين لي ان تريستاو ولد غير قاسي

انقلب، يعكسي تماماً، كما ان عليه مواجهة حياة غير اكيده. اتولدت

هنا، ولما كنت في سن المراهقة، كنت اعتقد ان كل شيء سيدوم الى

الابد. لكن في السنوات الاخيرة الفاتحة، طرأت تغييرات كبيرة، وعلى

ان اتعقب بصورة مستمرة. لذلك، اردت ان يبقى مع تريستاو احد،

هنا... امرأة تحبه وتسهر على راحته. كنت افكر بزوجة للقيام بهذا الدور،

لكن كان ذلك خطأ جنونياً»

حدثت جين في الفاكهة الموجودة الى جانب القهوة. لم تر او تذوق

مثلاً من قبل. الترابندي، والعنب الهندي، والموز ذو القشرة الوردية،

كلها وضعت على ورقة خضراء من ورق النخيل.

«اذا لم تأكلي من قبل الموز الوردى اللون، ارجوك، ان تتذوقيه. ارى

على وجهك بعض العجب»

«في انكسرتا، ليس عندنا سوى الموز الاخضر من بلاد الهند الغربية»

واخذت موزة وقشرتها باعنتاء. وقضت قطعة وهي تشعر ان الدوق

ينظر اليها نظرة مليئة بالسخرية. كانت الفاكهة لذيدة الطعم، حلوة

وقاسية.

«اليس صحيحاً انك تخافين ان تذي يدك لأخذ ما ترغبين؟»

«نعم»

«ان هذه الفاكهة طيبة المذاق، هنا يوجد اشياء عدة جيدة للعين والغم.

لذا ما عليك الا ان تستقيدي من وجودك معنا، يا جين»

«هذا ما سأفعله، يا سيدي. انا متأكدة من ذلك»

كانت تشكلم بلهجة خفيفة، تحاول عدم ملاحظة ما هناك من

عمومي وراء كلمات بيدرو انه يتكلم كأنها مجرد ضيفة وعليها ان  
ترحل في الوقت المعين. لم يدعها تطالب من السلطات الحصول على  
اذن عمل. صحيح انها الآن استقرت في منزل الدوق. واغراضها علفت  
في الخزانة. لكن ليس عليها الاعتقاد ان وجودها هنا دائم.  
«الليل سيبدو لك غريباً، في البداية.»

أخذ ايريك القهوة وملأ فتحاته من جديد.

«ستسعين اصواتاً غريبة، السعادين التي تبحر عن النهر وعويل  
الابل عتداً يصطاده الفهد الاسود. والعصافير الوحيدة تطلق اصواتاً  
غريبة. وفي قلب الادغال، يقوم الهنود بعقد اجتماعاتهم التقليدية. اذا  
عصفت الريح، تسعين فرقة طيورهم. في البداية، تبدو الادغال كأنها  
عالم خفيف. لكن عندما تستقرين، وتتعودين شيئاً فشيئاً حرارة  
الطقس، ستأخذ لرؤية اطلال الماياس: الخرائب الباقية من مدن  
منقرضة. سترين النباتات العجيبة، واذا ساعدك الحظ ربما تشاهدين  
الكوتدور، وهو النسر الكبير الذهبي اللون، انه من كبار الكواثر  
ويعيش في هذه البقعة من الارض. ان اتساع جناحيه مذهش للغاية.  
ويقول الماياس انها جنة محرمها السعادين لمنع الرجال من  
الكبرياء.»

«انه عالم يحفظ اختلافاتاً تاماً عن عالم انكلترا، لندن، نهر  
النائس... الآلة الكائبة.»

اطلقت جين زفرة وقالت:

«الافضل ان استيقظ من هذا الحلم»

«اسحبي لي ان اقوم بذلك عنك»

اتحتى وقرضها عمداً في طرف اصبعها.  
«انت واعية، لا تحلمين، لأنني شعرتك ترتعنين»  
«اصابعك كالحديد»

لكن، في الواقع، كانت جين تشعر بهذه الملازمة وكأنها شعلة  
ملتهبة.

«وانت انسانة سريعة العطب.»

احاطها بعينيه ثم فجأة وقف وراح يعبر الغرفة. ففتح ابواب الخزان  
وتفحص محتوياتها الضئيلة.

«لست بالغداة التي تشعر بضرورة اتباع الموضة بصورة مستمرة،  
ليس كذلك.»

تعجبت جين وهرت رأسها بالنفي.

«كما سبق وقلت لك، في اخذ ارتسمت راهبة في البرتغال لكن قبل  
ذلك كانت تحب محلات الموضة في الريو. خزائنها هنا مليئة بالثياب  
والبدلات والعاطف. ثم افكر من قبل ان اتصرف بها، لكنني اعتقد ان  
هذه الثياب يمكن ان تفيدك. من المؤسف ألا يستعملها احد. هل  
تريدين ان تأتي معي لرؤيتها.»

عندما نظر الدوق الى جين كانت تتردد في حيرة.

«هل سمعت ارتداء الثياب المستعارة يا جين؟»

«ليس ذلك يا سيدي... ربما شقيقتك لا تحب ان ارتدي ثيابها، انها  
انسانة غريبة لم يسبق ان عرفتها من قبل»

«ماغدالينا تريد من كل قلبها ان ترى احداً يستعمل اغراضها»

كان الدوق يتكلم بلهجة قاسية، واضعا يديه داخل جيبي سرواله



هذه المرة لم بأمرها. لكنه كان يريد فقط اقتناعها.

«لتفترض...»

قاطعها الدوق قائلاً

«لقد ذهبت منذ ستوات ٩٠٠»

«قهمت الآن لا شك أنها قامت بخطوة كبيرة باتخاذها هذا القرار النهائي»

«حصل ذلك بعد وفاة خطيبها. فهي امرأة مخلصه، بعكس النساء في أمريكا الجنوبية، غالباً ما يضحجن بأنفسهن، في راحة مرمقة، أي عندها هدفاً في حياتها، ولا تشي كل وقتها بالصلاة أو اليافا داخل البر لا تغافره. لم أكن أحب أن تسجن ماغدينا جمالها وراه الجبران وإن يذبل حبها للحياة كورقة على شجرة ميتة. عندما سافرت مع تريستاو الى البرتغال منذ بضعة أشهر. ذهبت لزيارتها وأتت يا جين هل اقتنعت بقبول ارتداء ملابسها؟ كانت امرأة تتحلل بقوى رقيق... كمها سترين الآن»

«وافق يا سيدي»

واقفت جين لم تشعر بأنها تحصل على ثقة. بل تعود الدوق رؤية النساء الانبغات. وشعرت بالانفعال لرغبة الدوق ان يراها ترتدي ثياب شقيقته.

«غرفتها في الطابق الاعلى وسانظره في الشرفة بينا ترتدين احد فساتينها. هذا المنزل لم تدخله امرأة من زمان، يسكنه رجل عازب نسي بعض اللياقات...»

راح الدوق يفتح ابواب الشرفة ولما خرج كانت الشمس الارجوانية

تقطس في البحر. فلفته بنورها الاحمر كشعلة.

ثم راح يجول بنظره صوب المناظر الخلابة أمامه، وهو يدير ظهره الى جين. وإبتسامة غريبة ترسم على شفتيه.

مع جين الدوق ينسى ان يلعب دور الرجل الفاوي. ان جسم النساء الشاب في ثيابها الرقيقة، لا يؤثر به، وكأنه ينظر الى ولد صغير. لم ينتبه بيدرو الى اتوتها والى بشرتها البيضاء الا بعدما حدث فيها الخادم الهندي الشاب.

تأملت جين تنورة وقميصاً من خزانة شقيقة الدوق واختبأت وراء الباب الكبير وراحت تغلق ثيابها وترتدي الملابس الجديدة. سرحت شعرها المشعث وتوجهت الى الشرفة حيث كان الدوق يتأمل السماء المنتهية.

لم ينطق بأي كلمة، لكنه شعر بوجودها. فقال بدون ان ينظر اليها. «تعال وانظري الى غياب الشمس، انه شيء رائع»

تقدمت جين الى الشرفة، والظل يمتد واسعاً في ساحة الصقر الذهبي. وبدأت تسمع صراخ الليل وأخذت مياه بركة السباحة تلعب كالياقوت.

تشقت جين قفحة من العطر الساحر وراحت تتأمل جمال اوراق النخيل المنحنية كستائر خضراء تكاد تلتصق بالارض. كانت تتأمل السماء بانفاس متقطعة، مسحورة. وشينا فشيئا امتلأت السماء بشي الالوان الاحمر، الذهبي، الليلكي الفاتح...

قالت جين بصوت منخفض:

«المظهر أجمل بكثير مما كنت اتصوره»

الصخرة! أنا، لا اصدق ذلك.

«لكنني ما زلت كما أنا».

راحت جين تناقشه، وفي الحال فهمت انه من الخطأ معارضة.  
حق الدوق في جين وجهها لوجه. كان وجهه يشبه البرونز الساخن  
والقاسي. ضاقت عيناه وراح يشدها نحوه بعنف.

«لا تبيضين بالحياة في هذه اللحظة وانت بين يدي، أكثر من اي وقت  
مضى! اجيبيني».

كانت غير قادرة على التعلق... فقد انقطع نضها، واحتلها ضعف  
ثقيل.

«هل انت خائفة كثيراً حتى انك غير قادرة على الكلام؟»

«نعم... نعم».

من المستحيل ان تعترف له ان الحب هو الذي يحيط عزيزتها عندما  
يلمسها، وليس الخوف.

أنا، أنا اربعك؟»

شد على خصرها النحيل وقال:

«نعم، يمكنك ان انفصلك عن نفسك، ماذا حدث؟ هل اعتقدت ان

سيد هنا سيصرف بلا مبالاة او بلياقة! لكن نعم في الصغر

الذهبي - حشودنا الادغال، اذا كنت غاضباً او قرحاً، فأنسي اظهر ذلك.

لما انت يا جين، فانت تكبتين شعورك».

لقد تربيت على ان اكون هكذا».

استعادت جين بعضاً من نشاطها. وفي تلك اللحظة راح قلبها

يخفق بسرعة فائقة وكانت تمصصها الناعمة ترتجح مما جعل الدوق

يستنشق ما يجري في داخلها. فقد كانت شديدة القرب به.

«ويجب ان اعترف لك، ان هذا المنظر يسخرني بصورة دائمة»

وراح صوت الدوق يمتلئ بنبرة وقورة تضفي على هذا المشهد إثارة  
حمية، ولم تشعر جين من قبل بهذه الرغبة القوية في ان تكون امرأة  
جذابة.

«فانحوا الاندلس اعطوها، نحن اللاتينيون، اسلوب الارابيسك، وكذلك

هذا النيل للرسم المنقذ في نحت الحجر والحديد المصقول. الآن سوف  
يرخي الفن معطفه ويستعيد الليل حفره. وبعد قليل سيمتلئ

الغواء بقطر الازهار، التي ترى ان الشمس قاسية بعض الشيء، فهي  
تتنفس بحرية في العتمة. كما سوف تأتي الفراشات الكبيرة بسرعة من

اعماق الادغال، تستهويها أضواء القناديل والمصابيح الكهربائية».

ترثف بوجهه عن الكلام وادار وجهه لينظر الى جين وجهها لوجه.

«القيالي ذاتها جميلة في هذا الوقت من السنة. جاءت زيارتك في الوقت  
المناسب».

اجابت بتهذيب:

«نعم، يا سيدي».

لن يعرف ابدأ انها جاءت وقلبي الوحيد مستعد للانسراح والبهجة،  
كما تستعد الازهار للتفتح.

«أنسي افهم ماذا تقصد ان الليل رحوم ومتسامح أكثر من النهار، لأنه  
يخفي العيوب».

«بالعكس، يا جين، الليل يكشف عن الجوانب المحجوبة في الاماكن  
والاشخاص انه تناقض، فالقناع يسقط في الليل، اتريدين القول انك

مازلت تلك الاسانة المحجولة والباردة التي التقيتها في قبللا



«يبدو لي ان التهذيب يقضي بي الا اناظره واعلم رأبي كما ليس من  
الادب ان اضع زهرة في شعري وارقص حافية القدمين يا سيدي انك  
تستخدمني لأعني بابنك وحبيب».

«نعم، لأنني كنت اراك شابة لم تنضج كفاية لتصبح غائبة تسجل  
بومياتها في دفتر المذكرات وتقرأ تفاصيل سخيقة».

«كيف عرفت انني اسجل يومياتي»  
حاولت جين ان تبدو مترفعة لكنها ظلت تنخيله برعب ينظر الى  
الزهرة التي وضعتها بين صفحات الدفتر.

«لقد رأيته على الطاولة قرب الاريقة، اراهن انك بدأت بتسجيل  
وصولك الى هنا، اليوم».

«نعم، فليس كل يوم تدخل انسانة مثل مثل هذا المنزل الاحيل».

«انسانة مثلك؟ هل تعتبرين حالك امرأة قريظة».

شجته الساخرة والرفعة جعلت جين تضرخ جلاً. كانت الشمس  
تضفي عليها اشعتها الاخيرة قبل الغروب.

اجابت جين:

«انا لست بالضيظ صورة الاغراء، لست انسانة ترفع من مقامك  
مثل... لست تلك الانسانة التي يمكنها ان تحمل مكان...»

اجابها بسخرية:

«لم أت بك الى هنا لتقومي مقام الزوجة، اكننت تعتقدين ذلك؟»  
«ارجوك... لا تكن قاسية».

كانت ترجف من الألم، وهي تحاول الابتعاد عنه. لكنه كان يشدها  
بغضب واصابعه تفرز في جلدتها كأنها من الحديد

«انت... انت تلعب بالكلمات وتغير معنى كلماتي، لأنني عارضتك

خيال نقطة ناعمة. انت قتل دور الظالم المستبد»  
«انا أمثل، يا جين».

رفعها بعينيه الذهبيتين اللتين تشبهان الفهود السود عندما يتفرون  
بظربتهم.

«انا نفسي، بيدرو دي زانتو، انني انتصرف معك لأنك انسانة من لحم  
ودم، لا مسحة أطأ عليها. انني اتناقشك لأنني اعتقد انك انسانة ذكية.  
ولأسف اذا كنت تعتبرين ذلك من عمل رجل فظالم مستبد. انت  
تريدين معلماً لا... صديقاً».

كانت كلماته تجعل جين مضطربة بشكل عميق... اذ تعودت ان  
تعامل بشدة وعنف، مما جعلها تعتقد انه يتصرف معها بطريقة ماذج  
ولارين. لم يخطر ببالها انه يريد صداقة لا خدمة.

كانت تنظر اليه بحتان وانفعال عندما ابتعد عنها فجأة.

«هكذا، يا جين، ستكونين أيضاً رقيقتي. يصبح المنزل وحيداً بعد  
غياب الشمس. كل مساء ستناولين معي طعام العشاء، وتشكلين  
معي، اريد ان اتعرف اليك... خلال الوقت القصير الموجود امامنا».

ارتعش قلبها، وخافت ان تفقد قواها.

«عليك لديك ان يكون مستقراً وبشكل دائم؟»  
«لا شيء يبقى بشكل دائم في هذه الايام، تعالي، هيا بنا نجلب بعض  
ملابس السهرة... يا جين، لا تخافي من ان تحدثيني بحرية، فلن  
الذلك».

حاولت جين الانصياع، لقد اصابتها صدمة عندما علمت ان  
وجودها هنا في الصغر الذهبي ليس سوى فاصل زمني في حياتها.

## ٨ - يدان باردتان، قلب حار

صعد الدوق الى الطابق الاعلى، فتبعته جين وما ان وصلا الى الممر المؤدى الى جناح شقيقة الدوق، حتى اشتعلت الانوار الكهربائية، فاخبرها الدوق ان منزله مزود بمولد كهربائي خاص، لكن عندما تسوا الاحوال الجوية، يتعطل المولد فيستعملون الفناديل التي تضيء بالزيت.

كانت ابواب الغرفة المظلة على الممر مصنوعة من خشب الارز المنحوت، وارتعشت جين كأنها ترى شبح ماغدلينا.

يبدو ان الدوق ما يزال يحن الى شقيقته في هذا المنزل الضخم، فباستثناء ترستاو ليس له اهل مقربون، الم يقل ان المنزل يصبح وحيداً عندما تغيب الشمس، وجين كانت تشعر بهذه العزلة.

كيس الدوق على الزر الكهربائي، فاشتغل الضوء، وراحت جين تتأمل باعجاب تلك الغرفة ذات الجبال النادر.

هنا، الاثاث بلون الذهب، ومرصع بخشب البورد، كل شيء اتيق وفخرف. الستائر الحريرية الزرقاء والفضية تتسلل في طبقات ثقيلة، والسجاد الذي يكسو الأرض من لون الستائر، وعلى متضدة الزينة قوارير من الفضة والبلور تنعكس اضواءها على المرايا الثلاث في

## الغرفة.

هذه الغرفة المهجورة، التي لم يسكنها احد منذ ذهاب ماغدلينا، ما زالت يرونها ونظافتها، كأنها الدوق ما زال يأمل ان تعود ماغدلينا يوماً.

فتح باب الخزانة الكبرى، فظهرت منها الثياب الجميلة، وشمرت جين بالعطر يتصاعد، فلا شك في ان شقيقة الدوق كانت تحب الثياب الجميلة والمجوهرات الثمينة.

نظر الدوق الى هذه الثياب كأنه يتخيل ماغدلينا وهي ترتدي هذا الثوب او ذاك، ثم ادار وجهه اتعاس وبأية من رأسه اشار الى جين بالدخول الى قاعة الاستقبال المجاورة المتصلة بالغرفة، وهنا أيضاً كان الاثاث اتيقاً وفريداً، اوراق بيضاء تزين السجادة الحمراء، ووسائد حمراء عدة موضوعة على الكتيبة المخملية الرمادية اللون، «هذه صورة ماغدلينا».

يجذب الدوق انتباه جين الى جدار ملبس بالخشب، واثابتها صدعة خفيفة عندما نظرت الى عيني الفتاة الشابة، كانت صورتها مرسومة على لوحة اطوارها من العاج، اعجبت جين بخطوط عينيها الجميلتين ورموشها السوداء الناعمة، وكان وجهها مليئاً بالحياة، بدون ان يكون جميلاً بالضبط، وكانت ترتدي فستاناً احمر يظهر تعذبة جسمها ورشاقته، وزهرة بيضاء برية تزين خصرها.

تهدت جين قائلة:

«انها جميلة جداً، تذكرني بترستاو».

قال الدوق بكل هدوء:



«بالطبع، لم لا؟ فهي شقيقتي».

«انني افهم مدى حزنك لأنها هجرت هذا البيت».

«إنها تابعة لدير عذارى الوحدة. وأنا أعرفها جيداً. لذلك لا يمكنني القول بأنها حقاً سعيدة. لكن هذا لا يمنعني من التفكير في ان سعادة المرأة تتعلق بالحب الذي يربطها بالرجل. لكن شقيقتي مصرة على انها لن تجد الحب مرة أخرى... لقد مرضت وبقيت طريحة الفراش لأشهر عديدة. وعندما شفيت، غادرت البرازيل هرباً، وعلمت بعدها انها لجأت الى دير عذارى الوحدة في البرتغال. لحقت بها، وحاولت اقناعها بأن تعود معي الى البرازيل. لكنها رفضت... كانت على وشك الانهيار ونصحني رئيسة الدير بأن انتظرو».

هز كتفيه العريضين وأضاف:

«ربما تستغربين إذا قلت لك انه لم يسمح لي رئيسة الدير بأن اصطحب ماغديلينا معي. تلك الليلة، لرفضت العودة الى الدير بشكل نهائي. لقد قلت لها «ابق هنا في البرتغال. لست بحيرة على العودة الى البرازيل». كانت تبكي كأن قلبها تحطم وعلمها احايه الدمار. كانت دائماً شديدة المرح. لم اعتقد يوماً بأنها ستصاب بصدمة كبيرة على اثر وفاة خطيبها في اليوم. وما كنت اظن انها قادرة على ان تحب انساناً الى هذه الدرجة. كانت تسحرها اشياء أخرى عديدة: الحياة، الترحل، ركوب الخيل، المسرح، السهرات...»

وتوقف الدوق فجأة عن الكلام وغادر غرفة الاستقبال ليدخل غرفة نوم شقيقته

تناول من احدى الخزائن بعض الملابس، بحركة غاضبة وقال:

«تعال، هذه الثياب لك. انت سمر! والالوان التي كانت تحبها تليق بك. وكذلك الوان الحجارة الثمينة: الباقوت الاحمر والزمرد... انا متأكد انه لم يسبق لك ان أبرزت جمالك. هاتان العينان الخضراوان وهذه البشرة البيضاء. اما الآن فما عليك الا ان نحاولي يا جين، سوف نقبلين ونقولين اني انسان قاس وظالم، اليس كذلك؟»

لحقت جين بالدوق الذي غادر الغرفة بعد ان اطفأ النور واغلق الباب. تاركاً صورة ماغديلينا في العتمة.

دخل غرفة جين. وألقى بالملابس على السرير. «من الآن فصاعداً، هذه الملابس ملكك. ماغديلينا هي الآن الراهبة مزايه».

تلاذت عيناه وحرق في جين بنظرة شرسة وقال:

«اندخلين الدير اذا انقلب العالم ضدك. يا جين!»

«أنا... لا أعرف، سيدي».

كانت جين تبدو رصينة، متحفظة... وبدا الاضطراب في يديها المشدودتين وراء ظهرها.

«لم اكن مرة شبه النساء اللواتي يعشن مغامرة عاطفية ذات نهاية درامية. شقيقتك امرأة جذابة، اما انا، فلا احذب الرجال، يا سيدي».

راحت عينها الدوق تنظران اليها في دفة ثم توجه نحو السرير واختار ثوباً طويلاً من المخمل الاخضر.

«ما عليك الا ان ترتدي هذا الثوب فتغيري رأيك بنفسك، المرأة تبدو جميلة وأنيقة اذا ارتدت قستاناً جميلاً».

بعدما غادر الدوق المكان، بقيت جين جامدة لا تتحرك. كانت

لا تزال تحت تأثير دوامة الانفعالات التي اوجعتها.

ما جدوى البقاء هنا، فاشرة القم امام الفنانين المكسدة على السري.  
من الأفضل البقاء بتعليقها لتظل اتيقة. وما ان لمست يد جين  
الفنانين، حتى فكرت انها لن تنجراً وترثيها. ستيديو مثل غراب يتزين  
بريش الطاووس.

تناولت فستاناً من اللون الاخضر القاتم، وهو الثوب الذي اختاره  
الدوق، فهو من المخمل الناعم، طويل، من طراز القرون الوسطى.  
الاكمام الراسعة والطويلة وانقية العالية التي تنتهي بقبعة.. لون  
الفستان يليق بها ويتسجم مع لون عينيها، لكن جين لن تنجراً على  
ارتدائه. هزت رأسها واغلقت باب الخزانة تاركة الفنانين البراقة في  
وحدتها. عليها ان تنسى وجود تلك الفنانين الفضفاضة ونهتهم بتريستاو  
الذي لا بد ان يكون احتفظ ويريد تناول العشاء.

عندما دخلت جين الى غرفة الصبي، كان جالساً وسط السري،  
يلعب ببطائرة صغيرة، يغرزها في بطانيته ثم يرفعها عالياً لطير محدثة  
ضجيجاً. ولما رأى جين، ابتسم لها وقال:

«هل تعجيك طائرني، يا أنسة؟ اشتراها لي أبي عندما كنا في البرنغال،  
نزور عمتي. اليس رائعة؟ انظري الى الرشاش في برج المرمى»  
«انها رائعة حقاً».

ابتسمت جين وجلست على طرف السري وراحت تراقبه.  
خصلات شعره الاسود القصير المنثنت وعيناه الذهبيتان تلعبان  
بالراحة. انه يشبه شقيقة الدوق شيئاً كبيراً. فليس غريباً ان يحتفظ

به والده، يدور الالتفات الى الشاعات.

سألت جين الصبي:

«ما رأيك لو ارتديت ثيابك وهيأت نفسك للعشاء؟ لا بد انك جائع يا  
تريستاو، الحق ان تأكل شيئاً معيناً».

راح الولد يفكر وهو يداعب طائرته ويحدق بجين، ثم سأطأ:  
«هل تتناولين طعام العشاء معي؟ حرت العادة ان أكل وحدي، لأر أبي  
يتناول عشاء متأخراً، وغالباً ما يجلس في مكتبه ويعمل هل تحبين  
أبي يا أنسة؟»

فوجئت الفتاة بهذا السؤال، لكنها قالت نفسها بسرعة يجب ان  
تعتاد على استئذ هذا الصبي الوحيد، الذكي والكثير الفضول  
اجابته قائلة:

«والدك رجل لطيف ومهذب، يا تريستاو، وأنا احترمه جداً، واعرف تماماً  
انه يكن لك حياً كبيراً».

«اليس عندك والد يحبك؟»

اجابته جين وهي ترفع خصلة من شعره عن جبينه الاسمر الناعم:  
«مات والدي من زمان».

«والدتك... هل ماتت مثل والدي؟»

لم تكن تتوقع سواً كهذا، فهي تعرف ان والدة تريستاو، ما زالت  
حية تزرق. لا شك ان بيدرو جعل ابنه يعتقد بأن والدته ماتت.  
وبرغم كل ما حدث فإنه من الظلم ان يتم التفريق بين ام وولدها هل  
كان الدوق يخشى ان تقوم والده تريستاو باحتلاس حبه للصبي،  
لأنه لم يعد يحبها؟ هل هو ظالم الى حد رفض فكرة ان يتخاضع من



يجب مع انسان آخر؟ او هل ان فقداننا جعله يخافه من اي تدخل يحصل بينه وبين تريستاو؟

جست جين تهديتها. فهي لن تفهم ايذا هذا الرجل الغامض والذي وقع عليه قلبها.

«ماذا تريد ان تختار للعشاء؟»

راحت جين تلطم جوارب تريستاو وتساعد على ارتدائها. لقد لاحظت بحزن تشوه رجله المصابة.

اجاب تريستاو:

«اعتقد اني افضل بعض الفطائر بالزبدة والمربي».

«هذا يبدو طعماً سهياً. هل يجب ان ارفع الجرس لطلبه؟ لم افرس بعد على سيد الامور في هذا المنزل ولا اريد ازعاج الخدم».

اجابها بشيرة متكبرة:

«انفهم ابي أنك رفيقتي. سأرفع الجرس وسأني جوستوس واطلب منه ان يحضر لنا بعض الفطائر. ويشا تعاديين على ذلك. يا أنسة».

«شكراً عزيزاً يا تريستاو. انت لطيف جداً. ان لغتي البرتغالية سيئة للغاية. واحتاج الى بعض الوقت لأصبح قادرة على التحدث مع الخدم. هل بين الخدم من يتكلم الانكليزية. طبعاً ما عدا كبير الخدم المتعجرف؟»

«كلا. الجميع هنا يتكلمون لغتهم المحلية. ما عدا البدائيين الذين ينهمون بالاشارات. وذلك لأنهم انوا من الادغال حيث يتكلمون بايديهم. حتى لا يحدثوا به ضجة تفسد عملية الصيد. يقول ابي ان الخنود الماياس يستمعون بنظر وسبع قوين. كالاسد. فهو يعرف ذلك

قاماً لأنه غالباً ما يذهب الى الصيد معهم. عندما أصبح اكبر منا سيأخذني معه. لكن لا يمكننا ان نأخذك معنا يا أنسة. فلا يجب الخنود وجود النساء في رحلات الصيد».

«ما قلبه لم يزعجني ابداً».

ولفت نظر جين جلد تمر كبير الحجم. اشقر اللون. موضوع على الارض قرب سرير تريستاو.

«قتل ابي هذا الثور الذي يقتل الاولاد الصغار في الادغال. يمكنك رؤية مكان الرصاصة في الدماغ. لم يتألم الحيوان وجده لم يلف. لوالذي تجارب كثيرة».

قالت جين في نبرة جافة:

«يكل تأكيد. والان يجب ان نرفع الجرس ليجلبوا لنا العشاء. اغسل يديك ووجهك جيداً. بينما اطالع هذه الكتب. هل سبق ان كان لديك رفيقة اومربية. يا تريستاو؟»

التفت نحوها وهز رأسه قائلاً:

«ابي يهي الدروس ويسمعي افرأ اذهب الى مكتبة ساعتين كل يوم. هذا اذا لم يضطر الى التفتيح عن المنزل لعدة ايام».

طلب تريستاو حاجبيه وعرض على شقيقه.

«احياناً يذهب في المساء. ولا اعرف اين يذهب. لم يكن يفعل ذلك من قبل. يا أنستي. وبسبب هذا العمل الاضاعي الذي يقوم به. اضطر الى ان يطلب منك ان تكوني رفيقتي».

اجابت جين وهي تبتسم:

«نعم. يكل تأكيد لا يجب والدك ان يتركك وحدك. لكنني اعتقد انه

يجبر على ذلك».

وراحت جين تسأل نفسها:

هل يخرج ليلاً من أجل القيام ببعض الاعمال أو أن هناك سبباً آخر؟  
هل هو على علاقة مع امرأة، يفضل ألا يخبر تريستاو بها؟ هذا يفسر  
حاجته المفاجئة إلى إنسان يتق به من أجل البقاء مع تريستاو ليلاً  
نهاراً، عندما يكون غائباً عن المنزل.

شعرت جين بألم غريب في قلبها. إن رجلاً مثل الدوق لا  
يمكنه أن يعيش حياة ناسك...

كان تريستاو يبدو صغيراً وتحيلاً ففي بيجامته الحريرية...  
نصحت أنه يأكل الفطائر كوجبة ثانية على أن يبدأ بأكلة شبيهة مثل  
لحم الغنم المطبوخ بالبصل والبنندورة الذي يقدم مع البطاطا الصغيرة  
المقلية مع الجبن.

قالت جين مبتسمة:

«لا بد أنك جائع مثلي، يا صديقي».

«هل ستتناولين طعام العشاء معي، يا أنسة؟»

وهنا سمعت طرقاتاً على باب الغرفة. كان جوستوس يجيب على قرع  
الجرس. اشارت جين برأسها إلى تريستاو الذي راح يطلب العشاء  
بسرعة، في لغة لا يمكن لجين أن تفهم منها شيئاً.

كان الخادم الهندي الشاب يحدق بجين في كثير من القصور.  
وكانت هي تنظر إليه يهدو. كانت تفهم أن هؤلاء المنسود الماياس  
يشعرون بالحرج تجاهها، ولكني تحظى بصداقتهم، عليها أن تحافظ على  
هواهم اعصابها.

همس جوستوس بكلمة إلى تريستاو، ثم خرج من الغرفة.

القت جين نظرة استفسار إلى الصبي الذي رد عليها بقمرة ساخرة  
وهو يقول:

«قال جوستوس عينك تشبهان حجارة التين، يعني أنها تشبه الزمرد،  
يا أنستي».

«حسناً، لا أعرف إذا كان ذلك ذمّاً أو مدحاً. على كل حال، أمل ألا  
أكون أشبه التين... هل أنت حقاً سعيد بوجودي معك هنا؟»

اجابها يستاو وهو يمسك بيدها ويضعها على خده. لا حاجة له أن  
يعبر بالكلمات. وفهمت جين في الحال أنه يرحب بها وأنه يحتاجها  
ماسة إلى خناتها.

سألها تريستاو وهو ما زال متعلقاً بيدها:

«أأنت، يا أنسة؟ هل أنت سعيدة بوجودك هنا؟ إنك ياقية معاً، أليس  
كذلك؟ إن تدعي... أو على الأقل ليس قريباً؟»

وعنده جين بأنها لن تغادر قريباً. لكن عليه أن يفهم أن أقامتها  
هنا ليست بصورة نهائية.

«غداً نعرف كل شيء في الصقر الذهبي، أما الآن، فيجب أن نتناول  
العشاء. وبعد ذلك ستختار كتاباً نقرأه معاً. اراهن أنك تحب الكتب  
التي أحبها، أي كتب المغامرات والأسفار».

هز تريستاو رأسه، ثم دخل مع الحمام وهو لا يزال ممسكاً بيدها.  
في غرفة الحمام مغطس كبير واسع. وعلى أحد الزنوف بعض البواخر  
التي يلهم بها في الماء عندما يأخذ حماماً. فتحت جين حنفية الماء  
الساحنة لتتلاً المغطس وقالت:



«اعتقد انه يجب ان ابقى معك عندما تأخذ حماماً. اليس كذلك؟»

احتج تريستاو قائلاً:

«لست طفلاً. تعلمت السباحة من زمان. قال الأطباء لأبي ان السباحة تفيدني. عادة يكون ابي هنا عندما استحم. يراقبني ويتأكد من اني اجفف جسمي جيداً. وعندما يكون والدي مشغولاً يكون معي جوستوس».

وضعت جين بعض الصابون على ليفة ناعمة وراحت تغسل وجه تريستاو ويديه. ثم اعطته منشفة وسأته:

«قل لي يا تريستاو، ألم يكن هناك امرأة تهتم بك قبل مجيئي؟»

«نعم، عندما كنت صغيراً... وبسيها، انا...»

عضى الصبي على شفتيه والقي نظرة الى رجله المعطوبة واكمل:

«كلمني عنها خادمة السيدة فيليبيا... قال لي انها اخذتني معها في السيارة وادخلت السيارة في الجدار. اذكر اني كنت محجوراً في احد القاعد وشعرت ببعض الألم. وعشي الرابعة جئت من البرغال لتبقى معي في المستشفى... كانت الدموع تتساقط من عيني ابي ياسفرار ولم تشف رجلي بشكل نهائي. لكنني لم اعد اشعر بأي ألم فيها، وهذا شيء جيد».

«نعم، يا حبيبي».

كانت جين تقشط شعره بيدو.

«هل تعرف ماذا حل بربيتك؟»

«قال لي سانسو الخادم انها قتلت. وقالت لي فيليبيا انها لولم تمت لكان والدي وضع حداً لحياتها. عندما يغضب والدي يصبح انساناً

قلماً وعنقياً. يقول جوستوس ان عيني والذي تشبهان عيون القطط الوحشية. التي يجب الاحتراس منها».

لم تستطع جين ان تمتنع عن الابتسام. برغم تفكيرها بالمأساة التي حصلت. اترى ماذا كان سيحدث لو مات الصبي وعاشت المريية؟

عادت جين مع الولد الى غرفته. جلساً معاً امام الطاولة وراحا يأكلان بشهية ويتمتعان بالطعام اللذيذ الذي احضره جوستوس على صينية فضية. وكان تريستاو يطرح الكثير من الاسئلة لعرفة المزيد عن انكلترا وخاصة عن العاصمة لندن.

اكتشفت جين كم هو لذيذ العيش برفقة ولد. ومضى الوقت وهما يتبادلان الحديث. ثم حان وقت النوم لترستاو فوضعت جين في سريره وراحت تبحث في مكتبته عن كتاب باللغة الانكليزية لتقرأ له بعض الفصول. وجدت كتاباً عن الاسفار يدعى «اسفار غوليفره». وفي الصفحة الاولى اهداه «الى ابني بيدرو، مع حب، الامام».

كتاب انتقل من الوالد الى ابنه... كانت جين سعيدة بأن تقرأ. هذا ما حصل عندما كان بيدرو صغيراً. اذ سمع تريستاو صوت امرأة تقرأ له كتاباً قيل ان ينام.

بعدما انتهت من قراءته. اغلقت جين الكتاب وراحت تراقب وجه الصبي النائم على وسادة بيضاء مطرزة بشعار العائلة: الصقر الذهبي الذي يحمل في مخالبه سيفاً وزينة.

كانت رموش تريستاو تشبه خيوطاً حريرية سوداء فوق بشرته السرا الناعمة.

نهضت جين واعادت الكتاب الى مكانه. في المكتبة عدد كبير من الكتب القديمة والحديثة. كنوز واساطير. اكتشافات البيرو.. الى ما هناك من قصص تاريخية للأطفال.

فتحت جين كتاب اكتشافات البيرو فسلطت منه ورقة. كانت قطعة من رسالة. اعادتها الى الكتاب رغم شوقها الى معرفة كل شيء عن آل زانتو. لكنها وعدت بأن تبقى كثومة.

البيرو، المعروفة بأثار قبائل هندو الاينكاس. وبلاساتير الغريبة.. في تلك الليلة قتل حبيب ماغدانينا. وشعرت جين بأن الشؤم يلاحق العائلة. كأن أحداً في الماضي حسب اللعنة على الدوق يهدرو وعائلته.

احست جين برغبة في داخلها، وضعت الكتاب مكانه وعادت تقف امام سريز تريستاو. كان ينام هذو. انحنى فوقه وبكل حذر لمست يفتحيها شعر رأسه. فتعحرك الوجه وهمس وهو مغمض العينين: أبي...

خرجت جين من غرفة تريستاو لتتوجه الى غرفتها. وراحت تتسأل لماذا لم يأت العموق ليري ابنه ويقبله ويقول له نصيحه على خير. عندما كانت مع تريستاو، سمعت صوت حوار حصان في باحة المنزل. فحلب إليها ان زانتو ما حضر الى المنزل. او ان الدوق خرج. كانت جين تشعر بقليل من التوتر. فقررت عدم الذهاب لوأ الى غرفتها وراحت تنزه في الممر الذي علق على جدرانها لوحات مثل افراد العائلة. لا يلاحظ احد وجودها. فهي ما زالت غير اكيدة من نفسها لتغامر بالنزول الى الطابق الارضي. الى مدخل المنزل. لأن الدوق قد

يكون هناك مع الزائر. وهي تريد ان تتجاسر.

راحت جين تلحرج ارض الممر وهي تنظر الى وجوه اسلاف الدوق. المشعالية والفخورة.

تولفت في الطفل. قرب فتحة نافذة تسدل منها الستائر الذهبية. جلست على الطرف العريض. كان الليل يطوق المنزل جالياً معه اصواتاً قوية. حفيف أوراق الشجر. خطوات الحذاء الصامتة. زئير الاسد. ضربات اجنحة الخفايش. كل هذه الاصوات تزيد من التوتر اعصابها وخاسستها. لم تكن تشعر بذلك عندما كانت تعيش مع عمتها. ولم تشعر بالغياة تفيض في داخلها الا بعد وصولها الى الصفر الذهبي. مثل نبتة تستقبل دفء الشمس للمرة الاولى.

كانت تائهة في افكارها لدرجة انها اعتزت بشدة لدى رواية قل كبير يرسم قريحها. فالتفتت وهي تعتقد بأنها ستري احد الخدم. لكنها رأت سيد المنزل. يرتدي سترة عتيقة وسروا لا اسود. كان يدخل السيكار. وجين راحت تأمل شعره الاسود المجعد. ووجنتيه وعيبيه اليراقطين تحت رموشه السوداء.

قال الدوق:

«انت اذاً هنا. ارجو ان تكوني قد تناولت طعام العشاء. يا جين».

«نعم. شكراً يا سيدي. تعشيت مع تريستاو».

«جاءني زائر غير منتظر. والأ كنت تناولت طعام العشاء معك. في الطابق الارضي. كان حديثنا عن الاعمال. وحديث ان يصيبك النمل لو كنت معنا. هل كان تصرف تريستاو خلال العشاء مشرفاً».

«نعم. وأنا سعيدة ان ابلغك ذلك».



أخذ الدوق نقساً من سيكارة ثم أضاف:

«بعد الحادث، صرت أحافظ على تريستاو يقرى في أكثر الأحيان. منذ وقت قليل بدأت أفكر... أود يكفى أن أقول لك، يا جين، أنني سعيد جداً لأنك قبلت أن تكوني هنا، معنا. وكذلك فأنتى مسرورة أنكما، أنت وتريستاو، أصبحنا صديقين. كنت أعرف ذلك، في داخلك شيء ما يجذب الأولاد... الحنان، والعينان الخضراوان، أنني أسف لأننى لم أكتشفك من قبل».

انتفض قلب الفتاة لدى سماعها هذه الكلمات، برغم أنها فهمت ماذا يقصد. أنها لو اهتمت بتريستاو وعندما كان عمره ثلاث سنوات، لما حصل له هذا الحادث.

«لماذا جئت إل هنا»

نظر الدوق إلى الظلال التي تعكس خيالها على اللوحات والجدران وأضاف:

«ألا تحبين غرفتك؟»

«أه نعم، إنها غرفة جميلة جداً يا سيدي، لكننى كنت أحتاج هذه الصور لأسلاف آل زانتو».

قال الدوق وأبتسامة ساخرة على فمه:

«احذري بحرى الهواء، أن الليالي باردة، تعالي معي إلى غرفة الاستقبال لتحتسي قنجان قهوة قبل أن تذهبي إلى النوم».

مدّها يده يساعدتها على النهوض. وشعرت بأصابعه الناعمة تشد على أصابعها قارمجة وسرعان ما حاولت جاهدة أن تخفي حقيقة انزعاجها.

قال لها الدوق:

ابتسمت جين، وهي ما زالت مضطربة من سحر الدوق وأناقته. وقتت لو أنه لا يلاحظ اضطرابها.

بعد أن انتهى تريستاو وجنته الأولى، عاد وأكل أربع فطائر بالزبدة والمربى».

«أه، نعم، أنه يجب أكل الفطائر، لكنه أحياناً يشعر بشهية مفاجئة. كنت دائماً أمل أن تشفى قدمه بصورة نهائية. لكن، للأسف فإن وتر كاحله مشلول. أخذته عند أطباء مختلفين، غير أنني اقتنعت في النهاية بأن الأمر ميؤوس منه. تريستاو ولد ناعم ولطيف، اليس كذلك؟ أنه لا يتأفّف من أي شيء».

«أه ولد رائع. لقد صرنا صديقين. قال لي...»

توقفت جين عن الكلام، مترددة ثم قالت:

«أنا لم أسأله شيئاً، لكنه هو الذي أخبرني كيف حصل له الحادث».

«أننى واثق من أنه يجب أن تعرفى السبب. كان عمره ثلاث سنوات، وعهدت إلى مربية لترعاه وتسهر على راحته. كنا نعيش في ذلك الوقت في الريزو وكنت أسمح للممرضة المربية أن تأخذ تريستاو معها كلما خرجت للتسوق أو للسياحة. كنت في مكنتي عندما علمت بالحادث. لقد تعطلت السيارة على حائط قرب الشاطئ». ماتت الممرضة. وفي البدء كنا نعتقد أن الولد لن يعيش في المستشفى فدمت له بعضاً من دمي. ومع مرور الوقت بدأت صحته تتحسن، وصار قادراً على تحمل أجراً جراحة في رجله المعطلة. يا الهي! كم كنت أتعذب وأنا جالس أنتظر وأتساءل ما إذا كان الولد الذي أحببته سيصير وهو في الثالثة من عمره».

«يدان باردة، يجب أن تتناولتي قنجان شاي ساخناً».

«افضل... افضل ان انام، يا سيدي».

كانت جين في حاجة الى مزيد من الشجاعة لترفض طلب الدوق، وأخافت تقول:

«كان النهار طويلاً. وفي أي حال لم اشعر يوماً بالحرارة في يدي».

«يدان باردتان قلب حار، يا جين؟»

حرق الدوق فيها. وعندما لاحظ علامات الإرهاق حول عينيها، اضطر الى الخضوع لرغبتها ورافقتها حتى باب غرفتها.

«تصبحين على خير، يا انستي».

«شكراً يا سيدي، تصبح على خير».

فتح الدوق الباب ودخلت جين غرفتها. انحنى طاقليلاً قليل ان يذهب. كل ما بقي من اثر الدوق بعدما اغلقت جين الباب، رائحة سيكاره. التي تسللت معها الى الغرفة وبقيت فيها نعنيها.

## ٩ - على صدرها زمردة

مضى على وجود جين في الصفر الذهبي سبعة عشر يوماً، وهي ما تزال تشعر بالمعبدة لأقامتها في منزل يقع قرب الادغال التي لا تراها الا من بعيد، وذلك عندما قضى مع تريستاو بعض الوقت في الشرفات العالية.

كانت تهتم تريستاو من التاسعة صباحاً حتى الظهر. ثم يتناولان طعام الغداء، وليلة ساعة تقريباً، كان تريستاو يمضي فترة من الوقت مع والده الدوق الذي يعلمه تاريخ اليرغال وبعض الحساب. ثم تستأنف جين الاهتمام به.

هذه الحياة المنظمة كانت لطيفة. لكن الآن، بعدما تعرضت على المنزل والحداثي التي تحيط به، بدأت جين ترغب في التعرف الى ما يحاور المنزل. خيل اليها ان الدوق يفضل ان يراها وتريستاو في امان داخل البيت، فهو لا يزال يحترس؛ فهاذا لو كانت هي أيضاً طائشة. كالربية الاولى! فكرت جين انه من الافضل احترام امنيات الدوق في الوقت الحاضر على الاقل.

لكن المكان يبدو في غاية الجمال والمجازية، لذا قررت جين في صباح احد الايام ان تستجمع شجاعته وتسال الدوق ان كان



يسمح لها باستكشاف الجوار، وإن تذهب لفتنه عندما يأخذ تريستاو قيلولته، يستعده بعدم الذهاب بعيداً، وسط الأشجار الرائعة التي تعانق النباتات المتسلقة من الشرفة. كانت البلدة تبدو لها جنة خضراء. وكانت تمنى لو أن الدوق يتذكر ما وعدّها به عندما قال إنه سيأخذها إلى الادغال بنفسه.

وبدلاً من أن يذهب إلى شاطئ البحر، كانت جين وتريستاو يسبحان في الخوض التابع للمنزل. فإذا سمح لها الدوق بالذهاب إلى الشاطئ، عليها سلوك درب ضيقة مشعرجة، درجاتها صلبة ووعرة. ولن تتمكن هي وتريستاو من عبور هذا الممر وسيضطر أحد هنود الماياس أن يحمل تريستاو، وجين تعرف جيداً أن الصبي يكره أن يلتفت الانتباه إلى عاهته.

كان البحر يبدو بارداً، لكن ذلك لا يخيف الدوق، لقد رأته مراراً عدة عائداً من سباحة صياحية، المنشقة على كتفيه. وشعره الأسود يلمع كجناح غراب.

كانت جين في حاجة إلى شجاعة فائقة لارتداء الثياب التي فرض عليها الدوق أن تلبسها، اختارت الثياب البسيطة. وبدأت تحب أن تكون انيقة الخلس وخاصة عندما تكون مع الدوق. كان الطاهسي ناجحاً في إعداد الطعام الذي كان يختلف من يوم إلى آخر: المأكول البرتغالية والفرنسية وأحياناً الانكليزية حتى لا تشعر جين بغربة تامة. أو ربما لأن الدوق يحب روستو البئر والحضرة منذ أن كان يدرس في انكلترا

كانت جين تشعر، قبل أن تأتي إلى الصقر اللذهبي بأن الدوق رجل رقيق ومهذب. لكن ثبين لها الآن أنه ينتمى إلى جانب ذلك بثقافة واسعة. لديه معلومات عن كل ما يتعلق بالفن والموسيقى والأدب. وكان يبدو سعيداً وهو يفتح أمام جين أفاقاً جديدة.

مكتبته الغنية تحت تصرف الفتاة. وكانت عندما تشكره، يرد عليها بحدّة، إنه كلها تعلمت أكثر استفاد تريستاو منها أكثر.

أحياناً، بعد العشاء الذي يعتبر الوجبة الأساسية الطويلة في أميركا اللاتينية، كان الدوق يأخذ جين إلى مكتبته لتناول القهوة. على جدران المكتب لوحات ومحفورات قديمة وحديثة. لا وجود لقطعة نافهة القيمة. وكان الدوق يطلع جين على أسرار الرسم الفني الرائع.

بدأت جين تجد أن هذه السهرات هي الثمن من الذهب أو الحجارة الثمينة. لم تكن فقط تتعرف إلى انتاج الفنانين أو الكتاب، إنما كانت تكتشف وجهاً آخر من شخصية الدوق، وهذا كان يعجبها. إضافة إلى وجود الدوق إلى جانبها.

بعد هذه السهرات كانت جين بحاجة إلى أن تبقى مستيقظة في سريرها وأن تعيش من جديد كل لحظة مرت بها، واستعادة كل الحركات التي بدت عن يديرو. أنها تلميذته، كما تريستاو تلميذها... لكن في وحدة الليل، كانت تركز تفكيرها على الدوق وحده وترمي بذراعيها الفارغتين على جانب السرير الكبير.

لقد وقعت في غرام الدوق وهي كذلك محترمة. وهذان الاحساسان عندما يجتمعان، ينتج عنهما عذاب ولا أمل.

في إحدى الأمسيات، وقعت جين تتأمل بأعجاب مكتب الدوق

الجميل المليس بالأوراق الغريبة.  
«هكذا أذاً، الأدغال تجذبك».

كان الدوق قد سكب فئجانيين من القهوة وقدم اليها واحداً.  
النار تشتعل في الموقد الكبير البني من حجر الترميد. وكانت الستة  
الذهب تغطي بظلمتها على المكتبة وعلى اللوحات المعلقة في الجدران.  
والدوق يرتدي سترة عنابية ويجلس على كنية ضخمة. فتح عليه  
مصنوعة من الخشب الاستوائي وتناول سيكارا. لله بين أصابعه  
وقال:

«هل تظنك الاصرات الابقاعية التي تحدث في الليل داخل الأدغال.  
يا جين. أنت امرأة شابة وفضولية. وعلى ما اظن فقد اكتشفت  
الحرية. لذلك تريدان التعرف الى اشياء اخرى. اليس كذلك»  
عندما دخلت جين مكتب الدوق، كانت الكهرباء تنور الغرفة.  
لكن سرعان ما شحّت الاضواء وانطفأت بصورة نهائية. جاء أحد  
البدائيين حاملاً شمعداناً كبيراً مرسماً بالذهب. وقال الدوق  
لجين: ان الكهرباء انقطعت، وهذا يحدث غالباً عندما تهب عاصفة.  
كانت الفتاة الانكليزية مستتعة بوميض الشموع المرفرج،  
الذي اضفى على الغرفة جواً رومانطيقياً.

اجابت جين وهي تنكور في مقعدها الاسمر:  
«نعم، يا سيدي. ارجو في رؤية الأدغال».

ثم اضافت قائلة:

«لا يمكن لأشئ أن يعيش في جوار الأدغال بدون أن يشعر بالسحر  
والانجذاب نحوها».

«هذا صحيح. اعدك بانني سأخذك لزيارة الأدغال عندما يسمح لي  
الوقت. وسأريك الجوانب الرائعة منها. لكنني الآن، منهك بزراعة  
البن وسأضطر للتغيب عدة ايام».

كان يحسني القهوة ويتكلم. الفت جين تحرق نظره سريعة ورأت  
بعض القموص في وجهه المضا بانوار الشموع الذهبية والمتأرجحة.  
وراحت تتساءل ما اذا كان الدوق سيروح لها ببعض اسرارها. كانت  
تتمنى ان يحصل هذا الاتصال. برغم تخوفها من ان يروح لها بقصة  
حب مع امرأة سراً من بلاده.

لا بد انه قرأ ما يحول في خاطرها: فقال بشيرة فائرة:

«في الأدغال نباتات حية، وحيوانات صغيرة، انها تعطر الجو بألاف  
الروائح التي يتعذر وصفها. الجمال يجاذي الخطر: فتشايك الازهار  
الناعمة كالحرير تخفي وراءها اثنين السام السريع والمفترس... أحياناً  
يصل الانسان امام مساحة من المياه الصافية الشفافة، فتجذبه في  
السطح الحار، لكنها غالباً ما تكون قد تسربت اليها الاسماك  
المضاربة. أكلة اللحوم، ذات الأسنان القاطعة القادرة على قطع يد او  
رجل في ثوان قليلة. والشهد الأكثر جاذبية رقصة النار عند الموقد: انها  
رمز الحب والنار وهي العنصر الانثوي».

اتسم الدوق في نهمل وراء سحب الدخان المتصاعد من سيكاره  
واضاف:

«حتى الآن لم اعرف بعد من هو الأكثر اتارة: رقصة النار وسط اشجار  
الموزام الفلامنغو الاصلية في كهف مسود بالدخان، هل سبق لك يا  
جين ان شاهدت الفلامنغو الاصلية؟»



«مرة واحدة في أحد الأفلام. لكني لا اعتقد أن ذلك يشبه ما يحصل في الواقع.

اجاب الدوق وهو يتسم بسخرية:

«بالطبع، إنه شيء مختلف. ان الفلامينغو في اميركا اللاتينية مبارزة بين رجل وامرأة. وليست بالتالي ما نراه في الافلام السينمائية حيث الفلامينغو عبارة عن استعراض تقوم به محلة سينائية تدوس على قدم الرجل الذي يراقصها، وبين اسنانها ورجل حمراء. ان الفلامينغو مليء بالرموز فيه روح وعاطفة وضيمير واخلاص. المرأة هي البحر والرجل هو البرق. المرأة هي الارض والقدر والرجل القوة والموت».

كان الدوق مسترخياً على الأريكة الواسعة وعيناه تشبهان عيني الصقر ومحددان بحين.

«أنت ما زلت في ربيع العمر! أمامك أشياء كثيرة للاكتشاف! الست متحمسة أمام هذه الامكانية، يا فتاتي، بعدما تخلصت من ارتباطك بواجبك نحو عمك».

«أني اعمل لديك، يا سيدي، امامي واجب على القيام به، لست خيفة هناك».

سألتها الدوق بشيرة جافة:

«هل تحبين عمك؟ الست نادمة لأنك تركت عالمك المتمدن الى هذه البقعة الموحشة من العالم».

اجابت جين ببساطة:

«بالعكس، انا سعيدة لأنني هنا، فد اكون انسانة تعيش على الحامش، لكنني لم اكن قادرة على تغيير ما في نفسي. ارجوك يا سيدي ان تقول

لي ما اذا كنت معجباً بعملي ام لا. انا ارى هذا المكان ساحراً».

قال الدوق بصوت منخفض:

«لقد بنى قصري بتانة، وهو يتوهج كالذهب وسط حقول البين. إنه قلعة محصنة ضد مخاطر الليل، والنساء اللواتي عشن في هذا المنزل على نوعين: اللواتي احببتهن واللواتي كرهتهن. ذهب ضحكهن وبكاؤهن، لكن القصر بقي. مرأت عدة تسالت هل من العدل ان يدوم الحجر اكثر من الجسم. ما رأيك انت يا أنسي؟»

فوجئت جين بالسؤال وتردبت بعض الشيء قبل ان تقول:

«أنا ارى ان الزهرة تؤثر في أكثر من الاتان الذي يحملها، حتى ولو كان ذا قيمة كبيرة. وفي رأيي ان هذا ينطبق على الانسان كذلك».

«فعلاً. ومن الغريب مدى انعكاس الحياة في الادغال. هناك انواع مختلفة من النباتات: النباتات التي تأكل اللحوم، والنباتات التزيتية، والنباتات المخنقة... يجب التحفظ من تلك الاخيرة، لأنها اذا وضعت عرصة للشمس تنظوي على نفسها. انها اكثر سعادة وهي مخفية، لأن جالها داخل، قلبها عيني وتخاف من الظهارة، لئلا يلحق به اي اذى. انها تفضل الظل... يرغم انها لو كانت معرضة للشمس لأظهرت سحراً جذاباً غريباً».

تمضى الدوق فجأة والسيكار في يده، ففتح الستائر الحمراء وراح يتأمل المظهر المتساقط على حجارة القرميد.

«يجب ان اتغيب لعدة ايام، يا جين».

استدار نحوها بفاتحة الطويلة السرا وأضاف:

«سأترك ترينتاو في عهدتك وأنا متأكد أنك مشهورين على راحتهم».

هل تخافين البنا هنا مع الخدم برفقة ابني؟

«لا انهم يضحكون كثيراً من اجل تريمستار وقد اعتادوا على وجودي

هنا. لا تخف يا سيدي، سأولي تريمستار كل عنايتي».

«الشكر يا جين».

اخذ يتأمل الرمال في طرف سيكلاره. ثم عاد الى مكتبه وفتح عليه

صغيرة سوداء. كانت جين تنظر اليه وتتسأل. الى اين هو ذاهب.

ومع من سيمضي تلك الايام بعيداً عن التصقير الذهني. كان نظرها

يحلق بيديه الضريبتين المليتين حيوية وقوة. هل ستلاسي بداء امرأة

أخرى؟

ابتعد الدوق عن مكتبه وانحى نحو الطاولة من جديد. وسرعان

ما اقترب من وراء جين. راح قلبها يلهي بسرعة هائلة. وضع يديه

الداخليتين على كتفيها وقال:

«لا تتلفضي بهذه الحدة...»

بدا صوته كأنه مبحوح.

«لست اسأداً يخرج من الغاية متوجهاً صوبك».

«انك تشي كما يشي الاسد».

وبرغم شدة انفعالها كانت تلفظ كلماتها بنبرة خفيفة. لم تكن تريد

ان يذهب. لكنها لا تقلق حق متعم. ليست سوى رفيقة ابنه. يد

الدوق الموسوعة على كتفيها لجعلها مضطربة وخائفة في آن معاً.

اخيراً تحرك الدوق وشعرت جين بشي ثقيل وناعم يمد الى عنقها

كانت في اصابع الدوق سلسلة احاطت على عنقها.

«انها حجر الثمن ليبعد هذا الوحش عن بابك».

قام الدوق بدورة حول المقعد واصبح وجهها لوجه امام جين.

احتضن يديها بيديه وساعدها على الزلوف لتصبح امام الضوء. وكانت

عينا السوق الذهبيتان تحيطان بالخلية التي كانت تنوهج على

بشرتها.

«انها في لون عينيك. هل ترجعك هديتي يا أنستي المحبولة؟»

سألته جين وهي تنظر اليه مترددة:

«ولكن ما هي هذه الحجارة؟ هل هي حجارة كريمة، يا سيدي؟»

اجابها الدوق وهو يمز كتفيه:

«تقريباً. انها حجارة صغيرة جميلة. انا لا اريد ان ازيثك بالخلي الرائحة

التي تشع غرائزي. اشعر انني بمثابة آب لك. لاحظت انك لا تلتصق

شيئاً من هذه التفافات التي تحبها النساء عادة. ألم تحبي هذه الجوهرة

يا جين؟ اعتقد انها تليق بك».

كانت تقاوم لتتخلص من قبضة يده ولتفتزع السلسلة. وفهم

الدوق ماذا تضمر فراح يشد أكثر على قبضته. وهست جين:

«انها زمرودة خفيفة. لا يستطيع... لا...»

«بل ستقبلينها. اريدك ان تعرفي شيئاً ان رجلاً في مقامتي. من التاجر

ان تتاح له الفرصة للاعراب عن افكاره بالفضل. يمكنه في كل الاحوال

ان يدفع ثمن الخدمات التي تسدي اليه. انا الشكر لك لأنك وضعت

عك في تصرف ابني. ليس فقط كأستلافة أو رقيقة. بل أيضاً

كصديقة يا أنسة دابر. نحن نعيش اليوم عصراً مضطرباً. وعلى الولد

ان يشعر بصورة دائمة بوجود انسان هادي. شجاع ومحبي. أنت

تتمتعين بهذه الصفات التي كنت ابحث عنها لرفيقة تريمستار. لذلك



وحررها يهدو' وقال:

«عندما يلتقي انسانان عتيقان، فلا بد من حدوث معارك».

«والافرى هو الذي ينتصر دائماً».

توجهت جين نحو الباب وفتحتة. في البهو امرأة كبيرة. ولما

انعكست صورتها على المرأة، شعرت بسحر يلفها. كانت الجوهرة

المعلقة بسلسلة ذهبية نحيفة تلعب في عنقها.

وسالت جين: «هل هذه انا بالفعل؟»

لم تعد جين دابر الحقيقية، صارت انسانة ترتدي ثياب امرأة

اخرى وعل عنقها زمردة مستعارة.

ولبرهة لم تر جين سوى صورتها في المرأة، ثم ظهر شيخ الدوق.

كان يسيطر عليها برأسه وكنته.

قال الدوق متعجباً وهو يحدق في عيني جين في المرأة:

«انت انسانة شجاعة ويكتفي الاتكال عليك في الاوقات العصيبة.

أكثر من اي شخص آخر... جسمك فقط هو سريع العطب. اليس

كذلك؟»

«اطن ذلك. يا سيدي. ارجو ان تظمن على تريستاو في غيايك».

«أذا، يا جين! هل تحبين الجوهرة؟»

«جداً. يا سيدي، هذا لطف منك ان تدعني التحلّ بها».

«انا لست انساناً لطيفاً، افهمي ذلك بصورة نهائية. لم اطلب منك

المجيء الى «الصقر الذهبي» لأنني احب الاحسان. وكذلك لم اقدم

اليك الزمردة لأنني شعرت بأية عاطفة».

احاط كتفها واجبرها على الاستدارة وانظر اليه. اجازتها نظره

لم تعدتهم قيمة الجوهرة المعلقة في عنقك. انما نوع من الرينة، لكن اذا

احتجت يوماً الى بعض المال، فيمكنك بيعها».

توقف عن شد يديها واعادهما الى صدرها.

«حافظي على هذه الجوهرة، يا جين. انما نوع من النعويض في حال

انتهت اقامتك في البرازيل بصورة مفاجئة».

لقد تعلقت يانك وأمل فقط لو ان عملي هنا يستمر بعض الوقت. لكن

اذا تزوجت فلن تعود في حاجة الي».

«هل تعتقدين انني المكر بالزواج مرة اخرى؟ من تكون تلك الزوجة،

يا جين؟ الا ترأين تعقدين بأنني ملتهب حياً بأبنة عمك الجذابة؟»

«لا... لا أعرف اذا كانت المرأة الجذابة تؤثر في الرجل بصورة دائمة».

اجابت جين وهي تعرف تماماً ان لارين ليست هي التي

تجذب الدوق بيدرو خارج الصقر الذهبي

عندما قال لها بيدرو انه مضطر الى التغيب عن المنزل بضعة

أيام، كانت تلعب في عينيهِ شعلة. كأنه لم يعد قادراً على مقاومة ما

يجذبه الى الخارج.

«اعدك وعداً صريحاً، يا جين. عندما اقرر الزواج، فلن اتأخر في ان

ابرج لك بذلك. وكما قلت، لن اعود في حاجة الى مربية. كما ترين يا

جين، انا صادق معك. انت تفضلين الصراحة وانا اعرف ذلك».

اجابت بصوت هادئ:

«بالأكيد. يا سيدي. لكن ما كان ينبغي ان تقدم الي هذه الزمردة.

قلتها لأنني اعرف جيداً أنك انسان عتيب. اتسمح لي بالنظر الى المرأة؟»

«بالطبع، يا جين».

كالثعلب.

«ارحلك الا تلعبى بالنار والا غضبت. عندما تهدى امرأة حلية تصبح ملكها. ان ما تربته في المرأة يعجبك، اليس كذلك؟ هل عليّ ان ارحلك كي تقولي الحقيقة؟»

«انا اعرف ما فعلت يا سيدي. اعطيتني ثياباً. وبما اني لا املك مجوهرات ارتديها مع هذه الملابس، اهديني واحدة. سأرتدي هذه الحلية هنا. ما دمت تريد ذلك. وعندما تنتهي مهمتي وانحادر القصر، اعيدها اليك.»

كانت جين تتحلى بالشجاعة، لكنها في الحقيقة كانت مرفقة. يبدوا سبق ان قال ان وجودها في القصر الذهبي سينتهي يوماً ما وان ثريستاو لن يعود في حاجة الى مربية.

كانت الفتاة تنظر الى مستنبلها من خلال غيمة رمادية، خالية من اي سحر. لذلك عليها ان تكون وقحة وتقول للدوق ما يجول في رأسها.

رفع الدوق وجهه جين موجهاً اياه نحو ضوء الشموع المخرج وسألها:

«ما الامر؟ هل تريد امامك مستقبلًا خالياً من الحب؟»  
«لم احد ابائي. لقد قبلت ما لا مفر منه. ومن الافضل الاستسلام والاستغناء عن بعض الاشياء.»  
«وما الذي يتفصلك بالضبط؟»

وضع الدوق يده على خصر جين وقرّبها منه:  
«الاغرا شي غريب، يا فتاتي. وهو احياناً يسيطر على الانسان من دون

ان يشعر.»

«لكن، انا... انا لست امرأة جذابة، يا سيدي.»  
كان تنفسها متقطعاً. وبدأت تسأل في ذعر الى اين متصل بالحديث معه.

«من الذي زرع في رأسك هذه الفكرة الخاطئة؟»  
اقترب وجهه من وجهها، وبدأت تهاب الموقف.

«ليست فكرة خاطئة... سمعت احدهم يقول اني لا اجذب الرجال. اتلثم. وابدو تافهة وبشرية للسخرية، وانت تجد متعة في تعذيبي. هذا يؤلمني. يا سيدي. لا تنظر اليّ هكذا! ان ادعك تسحرتي! انت تعرف جيداً مدى تسلطك على الناس...»

«لكن الظاهر انك لا تعرفين ما هي القدرة التي تتمتعين بها. يا فتاتي. من كان ذلك الرجل؟ وماذا قال بالضبط؟»

«حدث ذلك اثنا حفلة اقامتها عمتي في منزله.»  
«ومن كان هناك. ألم يكونوا كلهم من اهل المسرح؟»  
«نعم، ان اصدقاء عمتي معظمهم من اوساطها.»  
«هل انت متأكدة ان الذي ابدي هذه الملاحظة رجل؟»  
«يكل تأكيد.»

«هل تفهمين يا جين؟ هناك الرجال الحقيقيون وهناك الآخرون... ماذا قال لك هذا الرجل؟»

«أدأ لم تشرك ماذا قال! اراد ان يقول ان لا شي في مظهري يجذب الرجال، وانني اشبه الجنائز، شي من هذا.»  
«هكذا إذن... احدهم رأى فيك شيئاً غريباً ولم يعرف ما يسميه. هل



تعتقدين، يا جين، اني سأصرف معك هكذا. هل الجراً واقول لك انك ساحرة صغيرة شاحبة اللون ذات عيتين خضراوين غامضين؟ وانك انسانة يتعثر على الآخر انراكمها؟ الا تعرفين، يا جين، ان زهرة الحب الحقيقية هي وردة شاحبة؟»

ارتجست على شفتيه ابتسامة غريبة.

«لم يكن هناك مفز من ان يجررك الآخرون، يا ساحرتي الصغيرة.»  
«شكراً، لأنك قلت لي ذلك.»

كان عليها ان تتسلح بالوقاحة، انها طريقته الوحيدة للدفاع عن نفسها.

لست اصابع بيدرو الزمردة، وشعرت جين بيده، وكادت تصرخ.

«انتي احذرك يا جين، اذا حاولت ان تعيدي لي هذه الحلية، سيكلفك ذلك غالياً.»

«هل هذا تهديد يا سيدي؟»

«نعم، يا فتاتي، مع النساء يجب التصرف احياناً بلباقة واحياناً اخرى بقسوة. اني اصر على ان تحتفظي بالمجوهره.»

شد ذراعه حولها ورمقها بنظرة لم يكن فيها شيء من القسوة.

«هذه الزمردة لا علاقة لها بالمجوهرات التي تقدم لزوجة احد رجال آل زانتو. انها حجارة قديمة، عمرها عمر هذا القصر. انها احدي الحجارة الاولى التي استخدمها من ارض برازيلية سلفي الدوق بيدرو. كانت مخصصة لحبيسته التي لم يحالفه الحظ كي يتزوجها.»

«وتريد ان تقدمها لي؟»

«يجب ان تلك هذه الزمردة انسانة مثلك، لأن الانسان الذي استخرجها من الارض ونحتها يشبهك: انسان كريه، ذو قلب طيب، ومستعد للتضحية. حافظي على هذه الحلية! انها لك.»

كان الدوق يتكلم بشرة فاطمة، وبينما كان يرتب الحجارة على علقها، احس رأسه فجأة، وعانقها شعرت جين بشعيرة وحاولت ان تكبت دموعها. الدوق يجب ألا يعرف انها تحبه حاولت عدم التحرك بين ذراعيه... لكنها سرعان ما تخلصت منه وفرت هاربة نحو السلم والدموع تتساقط بغزارة من عينيها. كأنها في حلم، تركض من دون ان تنهار قواها. تهرب من الانسان الوحيد في العالم الذي تحب اليه قربه. لو انها تستطيع التعرف عن التفكير بتلك المرأة التي هجرها والتي اعطته ثمرة حبها: تريستاو.

وصلت الى غرفتها وارتمت على السرير وبدها تشد على الزمردة التي قدمها دوق آخر الى احدي الراهبات... هذه الحجارة تشكل تعريضة ترمز الى القائل:

اندست جين في السرير وهي تشعر بأن شيئاً ما من الدوق لا يزال معها.

## ١٠- آه يا بحر!

غادر الدوق القصر الذهبي من دون أن يودع جين. وأخبرها تريستاو أن والده جاء إلى غرلته في الصباح الباكر، ولما رآه مستيقظاً، قال إنه ذهب لقضاء بعض الأعمال وسيضطر إلى التغيب اسرع على الأقل.

«طلب مني والذي أن أكون مهذباً وألا أزعجك، يا أنسة. أنت لم تزعجني أبداً، يا صديقي!»

ابتسمت جين، لكنها شعرت في قلبها لقد أصبحت تقريباً إنسانة غريبة، نسيها يعمرو في لحظة الوداع. إن حادثة تلك الليلة ما كانت حصلت لولا وجود الزمردة، التي تعلقها في عنقها، ليل تهاجر تخافة أن تضيع.

لم يسبق لأحد أن قدم لجين هدية كهذه، وترددت مراراً قبل أن تقبل المجوهرة، لكن سرعان ما شعرت أن تلك المجوهرة تخصها وهما هي تحافظ عليها.

خلال الأيام القليلة التي سبقت سفر الدوق، لم يتحدثها عن الهدية بل كان يكتفي بأن يلقى نظرة على عنقها، من وقت إلى آخر ليتأكد من وجودها حيث وضعها.

منذ غياب الدوق، كان القصر الذهبي يبدو قارصاً في عينين جين. وكانت دائماً تتوقع أن تراه عائداً من حمامه الصباحي أو من الأسطول بعدما يكون قد امتطى حصانه وتغدد حقول الين. الدوق يملك أيضاً حقولاً من القطن وغابة واسعة حيث يتم تكرير أفضل العطور.

كانت جين تنظر حولها وهي جالسة قرب تريستاو في شرفة ميلطة بالفيشياء. وكان الصبي الأسمر النحيل يطعم عصافيراً نهاراً في رأسه ويشي آخر.

ابتسمت جين عندما التفت الصبي نحوها. كانت عيناه الذهبيتان تلمعان. ومرة أخرى لفتها الشبه الكبير بين الصبي وعينه الشابة.

كان الولد يتحدث جين في معظم الأوقات عن عنته. وكان يقول أنها امرأة جميلة كما تبدو وهي تضع على رأسها قبعة كبيرة بيضاء. قال تريستاو لجين:

«أحب أن أذهب إلى شاطئ البحر اليوم، الطقس حار، يا أنستي. وهناك ستشعر ببعض الطراوة.»

رجعت جين بهذه الفكرة وهي لا تصدق متى تسنى لها فرصة الطقس في هذا البحر الأزرق.

«سأطلب من جوستوس أن يحملك. لا يكتفي أن أسمع لك بالشيء كل هذه المسافة، يا صديقي. إذا سقطت وأصبحت بشيء فإن والدك سيغضب مني.»

ذهل الحافين من والذي يا أنسة.

استغرب الصبي كلام جين دأبر إذ لم يخطر في باله أن والده غادر



على التصرف بغضب. حتى الآن لم يرقه سوى العطف والحنان.  
أجاب قائلاً:

«شاهدته مرات عديدة يتشم لك، يا جين. اعتقد أنه يحبك»  
اجابته جين بحدّة:

«أنه يحترمني. لكنه يحبك أنت كثيراً يا عزيزي. وأنا لا أريد أن  
أجازف بأي شيء، يمكن أن يحصل لك، عليك أن تقول إن يساعدك  
جوستوس. أنه انسان قوي وخطواته أكيدة. كنت اقنئ لو أنه قادر  
على حمل... أنا أيضاً»

ضحك تريستارو فرحاً، وعانق جين، ثم ذهباً لأحضار ملابس  
السياحة وأعلام جوستوس بأنهما في حاجة اليه.

فجأة شعرت جين بأحاسيس غريب كأنه هناك شيئاً في الأفق من  
الصعب معرفته. جذبت تريستارو إليها عندما وصلوا إلى البحر  
وقالت:

«هل من الضروري أن نسير في البحر، في غياب والدك يمكننا أن نسير  
في الخوض»

أخفق تريستارو وفي عينيّه نظرات غمّاب ولوم:

«لقد وعدتني بذلك. لم اعد طفلاً وأريد أن أتم وأكبر حتى أصبح  
شجاعاً مثل والدتي. يقول بيرمينثيفو أن والدتي من أعظم رجال  
البرازيل. وأنا أريد التشبه به. أحب أن أبحر في البحر وأترك الأمواج  
تجرفني وتزحجني وهذا مستحيل في البركة أن الشيء الوحيد الذي  
أكرهه هو أن يحملني أحداً وعندما تصبح سائلي أقوى وأعتن. لن ادع  
أحداً يحملني»

اجابته جين مبتسمة:  
«هذا عظيم»

أصرار الصبي على التشبه بوالده أثر في جين تأثيراً عميقاً من  
بتجراً ويعاتبه على ذلك» جين نفسها تشعر بسحر وانجذاب إلى  
شخصية الدوق. قالت له:

«أذهب وقل لجوستوس أن يحضر. وأنا سأأخذ ملابس السياحة  
والمناديل وسأطلب من الطهاى أن يحضر لنا بعض الطعام تأخذ  
معنا»

«أنت رفيقتي الحبيبة، وأنا أحيك»

وضع تريستارو ذراعيه حول عنق جين وعانقها بشدة  
«أنا أحب تناول المأكولات الباردة عندما أكون على الشاطئ»  
واستعمال الايدي للأكل. لنا بحاجة أن تأخذ معنا ما رأيت  
أكلتينا يأكل بعض البيض المسلوق، والدجاج والزيتون والخبز»  
اجابت جين وهي تضحك وتنده بقوة نحوها:

«نعم. نعم. سنحاول أن نختلي من الطباخ كل ما هو طيب واليد»  
ابتعد تريستارو وهو يعرج وذهب يفتش عن الحذاء الذي  
وشعرت بغصة وهي تراه يتعمد يجب أن تعني به كل العناية

بعد نصف ساعة كانا في طريقهما نحو الشاطئ. كان تريستارو  
جالسا على كتفي جوستوس وكانت جين تحمل سلة الطعام  
وثياب السياحة وبعض المشروبات المنعشة المثلجة

كانت الريح تعصف أنية من البحر وراحت تلاعب شعورها  
وملابسها الحمراء وهي ترتعش فرحاً. أنه همار رائع وكل شيء يبدو في

منتهى السعادة! لكن عندما تسمع ضحكات تريستاو، كانت تترك ما الذي يعكّر سعادتها: فالدوق بعيد ولا يفاشها الفرح. وهي تعرف أن غيابها عن القصر الذهبي ليس بسبب العمل.

توقفت جين في الطريق المؤدي إلى خليج تحيط به الصخور وراحت تتأمل ذروة الأمواج القوية فتدبها بتسرع بأخت شبيه بذلك. وفوق المحيط تخلق ظيور البحر بأسطة احتحتها الواسعة. في سماء زرقاء.

هذا الجمال الرائع سيطر على قلب جين وتغلبها. انخفضت عندها لتتحفظ في أبحاثها ذكرى هذه اللحظة.

كانت تسمع أصوات البحر والعاصف وصوت تريستاو:

«تقدمي يا أنسة! لقد ابتعدت عنا كثيراً»

صرخت جين بصوت مرح:

«لأنني أتية. أحاول أن أفرج على كل ما هو حولي. فالنسخ جميل للغاية»

قال تريستاو مازحاً وساخرًا:

«النساء يحملن بصورة دائمة. أسرع يا جوستوس»

صرخت جين:

«كلا! كن حذراً يا جوستوس مع القصب ولا تسرع»

ركضت جين بهيا وتعثرت على السلاسل الحديدية وكادت أن تقع على رأسها. ومن هذا الجانب للشاطئ، الصخري بدوب العالم مع المحيط وشعرت جين بالحرق لأنها سمحت لتريستاو بالهجوم إلى هنا. في أي حال، هو و جوستوس وصلوا بأمان إلى الشاطئ الذي

يبدو مثل هلال من الرمال تحيط به الصخور الحمراء والمياه الزرقاء انصافية تغطي من حين إلى آخر الرمال العاجية. إنه شاطئ، منعزل وعز ورائحة الهواء مشبعة بالروية.

عندما وصلت جين إلى الرمال، رأت تريستاو منكمها في خليج حذائه. أوادت أن تطلب منه أن يأمر جوستوس بالبقاء. لكن سرعان ما مر الهندي الشاب أمامها ميتساً لها بخجل وأسرع راكضاً يتلقى السلاسل التي تصل به إلى القصر الذهبي.

قالت جين لتريستاو وهي تراقب الأمواج المتدفقة:

«ماذا لم يبق معنا؟»

لا يسمعها منع تريستاو عن الذهاب إلى الماء. لكن عليها أن تطلب منه أن يلعب فقط ولا يذهب بعيداً داخل البحر.

اجابها تريستاو وهو يخلع قميصه:

«لا يجب جوستوس البحر أنه يفضل الادغال، إنه هندي بالوراثة. أنا برتغالي. والبرتغاليون يحبون السياحة. قال لي والذي أن القباطنة البرتغاليين اكتشفوا جزءاً كبيراً من العالم لأنهم يشعلون بالجرأة وجب المغامرة»

«والدك يحب البرتغال كثيراً اليس كذلك يا صديقي؟»

«نعم، يا أنستي. أن جيني برتغالية، ولوالدي منزل في استوريل. لكنني أفضل أن أعيش هنا في القصر الذهبي. أريد أن أعيش هنا كل حياتي. وعندما أصبح شاباً، سأعطي الخيل وأزور الحقول مثل والدي. وأصطاد الاسود في الادغال وأحضر اجتماعات الخنود. أن هذا شرف كبير... ما رايك بوالدي يا أنستي، اليس رجلاً عظيماً؟»



اجابت جين وهي ترحل شعر الصبي:

«انه اعظم رجل التقية. والآن، يجب ان تعذني الا تقطس في الماء قبل. عليك ان تنتظري حتى اغبر ملاسي. اذا لم تقطسي يا تريستاو سأغضب منك... في غياب والدك انا المسؤولة عنك. وقد وعدت والدك بان اسهر على راحتك حتى لا يحدث لك اي مكروه. انت تعرف جيداً انك تعني له كل شيء»

اجاب تريستاو بغمرة ساخرة وهو يلاص وجه جين:

«هناك عمتي في الدير، انها شقيقته، كما تعرفين»

«اعرف، والآن اين هنا والعب بالرمل ريشا اغبر ملاسي وراء هذه الصخور الكبيرة، التي تشبه قارباً احمر مقطوع الرأس»  
«ومن قطع رأسها»

«والدك، بالتأكيد... وسوف يقطع رأسي اذا حدث لك اي مكروه، لا تريد ان يقطع رأسي، اليس كذلك؟»

«لا، لأن رأسي ناعم كجناح عصفور اسود وعيناك تهتمان بصورة دائمة، وكذلك لأنني احب صوتك الغريب»  
واضاف قائلاً بجديّة:

«هل تصبحين مسنة عندما اكبر؟ كنت افكر بأن اتزوجك، يا جين»  
«هذا لطف منك، يا تريستاو لكن سأكون كبيرة السن وانت ستكون في حاجة الى امرأة شابة وجنبلة»  
«كم عمرك؟»

«عمري الثمان وعشرون عاماً، يمكنك ان تحسب الفرق الكبير بيننا»  
سنة عشرة عاماً... لكن ذلك لا يبدو بنظره هوة واسعة.

«لم ار بحياتي اجمل من تلك العينين الخضراوين، يا جين. اعتقد اني سأبدو اكبر بكثير من عمري الحقيقي، لأن مسؤولياتي، ستكون كثيرة. سأكون مثل والدي، وسيتملّ وجهي بتلك المخطوط الصغيرة التي تتجرف كلها اهتمام، انتعدين، يا أنسي، انني سأشبه ابي في المستقبل»

قالت جين وهي تنظر الى وجه الصبي وتراقب ملامحه الناعمة:  
«دعني ارى، نعم، اني ارى قبك ملامح العائلة، يا تريستاو، انت ايضا تلك عينين جميلتين مثل عمك، ماغدينا، او الاخ، ماريا. لكن، هنا، في طرف ذقنك، غيازات، مشبه والدك عندما تكبر»  
«لماذا يرحف صوتك... اذا كنت خائفة من ابي، فسأعذبك الا اذهب للسياحة الأبعد ان تغيري ملاسك. لكن ارجوك ان تسرعني»  
«سأكون حاضرة بأسرع من لمخ البصر»

ركضت جين وراء الصخرة وخلعت ثيابها بسرعة وارتدت مايو بني اللون، ثم هربت تلحق بترستاو وهي سعيدة بين مياه البحر وامواجه.

لو كانت وجدها لراحت تسبح في اعماق البحر ولبقيت وقتاً اطول في الماء، لأن الهيام كان متعشاً وباعثاً للنشاط لكن جين اقترحت على تريستاو ان يرتاح قبل ان يشعب، وان يبحث عن الاصداف لأنها تريد ان تلصقها على علية السكار الفارغة لتحفظها كذكرى لها.  
نظرت الى تريستاو وفرأت في عينيه تساؤلاً، فسارعت تقول:

«كلا، ليس الآن، يا عزيزي. لكن يجب ان تعرف شيئاً عندما يطلب صني والدك الرحيل، علي ان اذهب. فالحياة ليست دائماً كما نريدها ان

تكون.. لذلك يجب الانفاذ من الرجال الحسرة، من الاصداف، من عصير الاناناس... ما رأيك ان تشرب منه الآن؟ انتي شديدة الظمأ»

هس تريستاو يقول:

«لا... لا أريدك ان ترجلي... أبداً. عندما يعود والذي سأطلب منه ان يقيقك. ما رأيك لو تزوجك...»

«تريستاو»

شعرت جين بصدمة في كلمات الولد. فهي تطابق حلمها الخالي من الأمل. وقالت:

«والدك دوق. والرجال مثله لا يتزوجون الفتيات مثلي. يا صديقي. اني اعسل لأعيش. وانا لست بانسانة حسنة. انتظري ارجو الأ تقول لوالدك ما سبق وقلته لي الآن! اذا فعلت سأضطر الى الفرار»

سألتا الصبي بعناد:

«لماذا؟ انت فتاة شابة، والرجال يتزوجون الفتيات مثلك. وانت ايضا جميلة ان عينيك خضراوين مثل الجوهرة المعلقة في عنقك. وقدماك جميلتان ايضا»

«انت ولم تاضع قبل الاوان»

وابتمست جين وهي تأخذ الصبي الى ظل شجرة التخيل حيث كانت سلة الطعام.

«اني اقدر اعجابك بقدمي. يا عزيزي. لكن الكبار لا يتزوجون امرأة لأن اصابع قدميها مستقيمة. انهم ينظرون أولاً في الوجه. ولا يحب وجهي الآ الصبيان والكلاب...»

وراح تريستاو يقهقه:

«آه. يا جين! كم انت ظريفة!»

«هذا ما قلته. اني اشبه الجنة وسأختفي مثل غيمة معجب اذا قلت لوالدك كلمة واحدة عن هذا الموضوع... سأكون دوقة جميلة! هل يمكنك ان ترسم لي تاجاً؟»

تناولت جين قبعها المصنوعة من القش ووضعتها على رأسها ثم قالت ساخرة:

«صاحبة السعادة. الدوقة جين. المشهورة باستقامة اصابع قدميها وبشرها اليابس»

وراحت ترقص رقصة انكليزية حول شجرة التخيل. لم تفكر انها تلك موهبة التمثيل مثل عمتها مارج. لكنتها في تلك اللحظة اكتشفت مدى موهبتها وفرحت لذلك. يمكنها دانيا ان تفرح تريستاو وان تخفي حقيقة شخصيتها امام الدوق. هكذا لن يعرف احد اي عذاب واي خوف من الوحدة. ما دامت لن يزوج لأحد بشيء.

سألت تريستاو وبعدما انتهى من تناول الاناناس:

«مارأيك لو نأكل الآن؟»

وافق تريستاو بحماس. وطففا يلتهمان من محتوى سلة الطعام التي كان فيها جوانح دجاج باردة. وبيض مسلوق وزيتون اسود. وروستو اليغر البارد. كان تريستاو يأكل بشهية وهو مدد على بطنه. سأل تريستاو جين وهو يعض على بيضة وابتمامة مريحة في عينيها:

«هل كنت تقومين برحلات في الهواء الطلق عندما كنت في انكلترا. اعتقد انها الطريقة الفضلى لتناول الأكل.»

«نعم، لكن لم يسبق لي ان ثبت بتزعة مرحة كهذه من قبل»

هز تريستاو رأسه وقال:

«كنت افضل لو ان ابي معنا الآن، لكان فرح جداً فهو يحب الزيتون والبيض. اسأل، يا ترى ماذا يفعل الآن؟ هل تعتقد ان انه منهمك جداً بأعماله للدرجة انه نسي وجودنا؟»

«انا متأكدة انه لا ينساك ابداً، يا صديقي. ما الذي هذا الطعام..»

كانت جين تيسم وهي تشكل. كانت هي ايضا تفضل لو كان الدوق بجانيها... وراحت تتخيله وهو خارج من الماء.

اغضت جين عينيها، تذكرت يده على ذراعيها وشعرت بالرعدة ذاتها. أو، لو يعرف أهمية هذه اللبسات الحارة. انها اهم بكثير من الجواهر. لو عرف ذلك، لخرى منها وعرف مدى ثقافتها...

قال تريستاو:

«كنت اتنى لو عتدي شقيقات او اشقاء اظرو معهم، قلن اكون عندك وحيداً. هل انت وحيدة يا جين؟»

اجابت وهي تقدم له تينة كبيرة:

«لن اكون وحيدة معك، يا عزيزي. انك تأكل جيداً وسوف تكبر قبل ان يعود والدك»

«اثنى ان يأتي والذي بأسرع وقت ممكن»

بعد الغداء، راح الصبي يزرع جسمه في رمال الشاطئ. ثم نام. كانت جين مضطربة. راحت تمشي قرب مياه البحر، والرياح تلاعب شعرها.

نعم، هي ايضا تريد ان يعود الدوق بأسرع ما يمكن... لكن عودته

قد تؤدي الى تغيير الجو في القصر الذهبي. رفعت نظرها نحو السماء. فرأت سراً اسود يحلّق بسرعة البرق، غيمة واحدة، في تلك السماء الزرقاء الصافية. جعلتها ترتعش. حدثت جين بالغمية وبدأت لها غربة وهندرة. وكأنتها تريد التهرب من افكارها. ركضت الى البحر وراحت تسبح بحرية في المياه الزرقاء. اراقت ان تسبح. حتى يتوقف قلبها عن الحفان... وهكذا لن تشعر بهذاب الفراق. فراق انسان اعطاها لذة الحياة. لكن ابنه يتام على الرمال ويجب ان تظل على قيد الحياة، قريبة منه عندما يفتح عينيهِ ويبحث عنها...

عندما افاق تريستاو كانت جين مستلقية تأخذ حمام شمس. ولما رآها فرح وقال:

«اعتقدت انك ذهبت»

«هل كنت تحلم، اني دأناً في قريك»

هز رأسه، لكن سرعان ما تعلقت اصابعه بها في شوق مضطرب. عندما رأته جوستوس ينزل السلالم والكلب الضخم ارسو يقفز قربه. نظرت جين نحو السماء، لم تعد الغيمة وحيدة، فالطقس يبدد بالطر. وجين تعرف انه عندما تظفر في هذه البقعة من الأرض، فكانه الطوفان. زخات المطر تضرب الخدائق وتحني اشجار النخيل حتى تلصق بالأرض. المطر في البلدان الاستوائية قوي مثل الشمس، وكثيف كالمتول.

عادا الى القصر الذهبي. وكل شيء يبدو باعناً في غياب الدوق. أصبحت الغيوم حمراء وذهبية في الغسق، لكن العاصفة لم تنفجر بعد. العشاء المكون من الباذنجان والبطاطا والسك المكلي، راحت



جين وترينتاو يلعبان لعبة الدومينو.

في الساعة الثامنة، رأت جين ان الولد متعب بعد يوم طويل قضاء في الهواء الطلق، فأقنعته بتغيير ملابسه واللجوء الى الفراش. وراحت تهزه الى ان وضع ذراعيه حول عنقها وشدها نحوه قائلاً: «لا تذهبى».

«لا، يا عزيزى، سأبقى جالسة في تريك حتى تمام»  
«اريد ان اقول... لا ترحلي ابداً».

«ابداً، هذا بعيد جداً، اما الآن فأنا زلت هنا. انا رقيقتك وصديقك وبالنسبة الى والدك، اني موظفة وأقل أهمية من برييتيفره»  
هس ترينتاو وهو يجذبها نحوه:  
«ألا تحبينى».

انغمرت الزمردة في جلد جين واحست بألم ممزوج بالفرح لدى شعورها بأن ابن ييدرو يجيئها... اما الدوق، فلا يد أن يكون الآن مع امرأة اخرى، واخترقت العذابات قلب جين كالكسكين.  
اجابت جين وهي تقبل جين ترينتاو، وخده وعنقه:  
«انا احبك بكل تأكيد، والآن عليك ان تمام جيداً، يا عزيزى، ارجو لك احلاماً جميلة».

سألتا الولد وهو يقمض عينيته:

«ماذا ستفعلين الليلة بعدما اتمام؟»

«سأفرز ما جمعته من اصداق جميلة، وغداً نبحث عن غلبة سيكار فارغة ونزينها».

«ابحشى عنها هذا المساء، هكذا نكتنا ان نبدأ بتزيتها غداً».

ابستم ترينتاو ثم اندس في السرير، شاهده جين ينام. ولد حساس وكثير الجدبة بالنسبة الى عمره، لقد تعلّق بها لأنها تكرر له وقتاً طويلاً، وعلى هذا الاساس قرر الدوق ان يأتي بزوجته الى الصقر الذهبي بدلاً من رقيقة.

نهضت جين بدون أحداث اية ضجة، بعدما سحبت يدها من ذراع الصبي، واحتفظها الغضب والنفرة، لن يتأخر الدوق عن طردها وتغيب قلبها في الوقت المناسب، ألم يقل لها «اني اعذك يا جين، انه عندما اقرر الزواج، سأحدثك بذلك».

كانت يدها ترعجفان وهي تهم بفتح الباب لمغادرة غرفة ترينتاو في المراهضات جين نفساً عميقاً لتهدى، اعصابها وراحت تفكر بالثقة وتتساءل «هل يجب ان اكون انسانة تافهة؟ هل كان يجب ان اقع في غرام رجل جذاب».

كانت يدها تشدان على درابزين الدرج المني من الحديد المصقول ونزلت الى البهو الساكن والبارد، توقفت امام المراة، التي عكست صورتها بريقه الدوق، في تلك الليلة الحاسمة، اما اليوم فهي وحدها مع الذكريات.

كلا، لا تريد جين النطاع الى وجهها، ذلك الوجه العاجز عن تحريك رجل مثل ييدرو، ابتعدت عن المراة، وراحت نحو المكتب ودخلته مثل شبح، كانت الغرفة لا تزال تحتفظ برائحة السيكار اخضت الاتوار، ويرغم الالوان وجمال اللوحات، شعرت بأن الغرفة خالية من الحياة، كان المكتب مرتباً، كل شيء كان مختلفاً في غياب صوت ييدرو الدقيق والعميق.

جلست جين في الأريكة الواسعة ورفعت غطاء علبة قديمة تراث الموسيقى مصنوعة من خشب الورد، وسمعت أغنية برنغالية قديمة. كانت جين تعرف أنها تعذب نفسها عن عمد، لقد جاءت لتري تلك الأشياء القديمة والشحف الفنية التي جمعها الدوق. انقلبت جين علبة الموسيقى ثم نهضت والدموع تنهمر من عينيها وهزلات غارجة من المكتب، ولكن من دون أن يلحق بها هذه المرة احد.

## ١١- في مكان ما...

مضى اكثر من اسبوع على غياب الدوق بدون أن يوضح سبب تأخير، وقككت جين من اقناع تريستاو بأن والده منتهك بأعمال كثيرة، لكنها كانت متأكدة بأن سيباً شخصياً ابغى بيدرو بعيداً عن «الصقر الذهبي».

ومع مرور الايام كان يتمو في داخل جين قلق رهيب، كانت خائفة من أن يعود الدوق مع زوجة، فلا يعود لها مكان في هذا القصر. صباح الجمعة، كانت الشمس تنير بأشعتها الصفراء الملهية ساحة المنزل، والعصافير الصغيرة الملونة لم تأبه بفنات الحيز التي كانت ترميها لها جين، بل تختبئ هرباً من اشعة الشمس الحارقة. والفراشات الخضراء والبلبلية تطير وتصفق بأجنحتها الشفافة.

كان تريستاو يشرح مرتدياً البطلون القصير الاخضر والقبعة المصنوعة من الفش، وجين يقفان خفيف تبحث عن الظل، قبل موعد الغداء، عاد الى المنزل، حيث تضفي مجاري الهواء برودة منعشة، وكانت اشجار البرو تتحرك ببطء، كأنها لولبية من حديد، وبدأت النباتات المتسلقة الخضراء معدنية شديدة التألق.

استندت جين ظهرها الى عמוד وشعرت بخفقات قلبها الخزين.

لكن كريستال لم يظفر من النوم في وقت القيلولة. وضعت جين الصبي في السرير عارياً، ثم راحت إلى غرفتها واستراحت في الكريسي الطويل.

اليوم بالذات كانت جين تشعر بالكسل مثل ابنة عمها لارين. كانت في حاجة إلى ساعة أو ساعتين لتكون وحيدة في مكان منعش يتلاءم مع مزاجها القلق.

خرجت إلى لمرقة غرفتها وراحت تتأمل الحقول المزروعة التواسعة الممتدة إلى ما بعد الحدائق التي تحيط بالقصر.

احسّت جين كأن صورتها يمس في أذنيها «هل تخافين؟ لا تكوني عفا يا جين! إن الدوق على بعد أحيال عديدة ويستفيد من حرثته». دخلت الفتاة إلى غرفتها وتناولت قبعة من القش وخرجت.

كان الصمت يعم القصر. لا بد أن الخدم الخنود يأخذون قسطهم من الراحة.

في السائتين. كانت اقراط الموز الثقيلة جامدة لا تتحرك. رائحة الكاكاو القوية تعطر الجو. والدراق الصغير يلعب كالثمن.

قلبت جين ثشي حتى دخلت الأدغال. أشجار شائعة تبرز نحو السماء مثل نافورات الماء. نباتات كالخشخاش المختلف الألوان ونباتات متسلقة ومتسلكة وأغصان الشجر وأوراقها متداخلة مما يجعل الظلال وارقة ونادراً ما يمكن رؤية الفضاء.

شعرت جين بأشغال مضطرب عندما أزالّت الأغصان لتدخل إلى فريوس أخضر حيث ترتفع زرققة العصفور. في أعلى الأشجار. وظنين الحشرات. كل هذه الأصوات من حولها تنسج علاناً حياً لا يرى. راحت

جين تتأمل بتعجب الأشجار المتعلقة ذات الزهور الحمراء. كل النار اضرمت أزهارها. وأعجبها أيضاً الشجيرات المتصاعدة تحت رؤسها الليلية. والأشجار المعاطة بالنباتات المتسلقة الصفراء الوردية التي تشبه النشاعات الشفافة. في هذه الجنة الخضراء يتنقح شعر غريب. لقد عرف يبدرو هذا المكان منذ طفولته.

رأت جين في طرق الأغصان زهرة سطحية تشبه تلك التي أهداها أياها في اليوم الأول من وجودها في القصر الذهبي مدت يدها وقطفها بنأن. لونها أحمر داكن مرصعة ببقع ذهبية. وتذكرت جين كلام يبدرو حول حياة النبات والأزهار في الأدغال.

وراحت جين تتأمل الزهرة البرية الأنيقة. تساءلت ما إذا كانت الزهرة تزدهر جمالاً لو علقت على شعر أسود لامرأة برازيلية. مثل فيليسيا دي أيفانجيل مثلاً. وكانت جين متزعجة من دوران أفكارها. فهي تكره عذاب هذا الحب الذي يجعلها تنطيل باستمرار أن الدوق مع نساء جميلات. أنه عذاب تشعر به جين. وحدها. فهو لم يفكر فيها وربما نسيها أو هو لا يعلم شيئاً عما تعانيه.

بعد مغامرتها في الأدغال. هذا العالم الغريب الساحر والمضطرب. انتهت جين أنه من السهولة أن يضيع الإنسان في قلب الأدغال. أن جمال الغابة خداع. كما تعرف أنه خطر وعليها أن تبقى هنا. مخفية وسط النباتات المتسلقة. يهددها طين الحشرات وزرققة العصفور.

كانت تنظر حولها عندما شعرت بوخزة خفيفة في ذراعها. ونظلت فرائت حشرة مقترنة. جناحها يرتجفان ثم ينطويان ولا يتحركان. كانت نحيفة. ولونها شاحب. فلم تصدق جين أنه يمكن لحشرة جميلة كهذه



ان تكون مؤذية.. وتذكرت ما قاله لها الدوق في احدي الامسيات عندما حطت حشرة مشابهة على نافذة مكتبه. قال لها وهو يشم بسخرية ان هذه الحشرة تصلي طالبة الغفران. لأنه من عادتها ان تقتل من تحب.

همست جين تقول:

«اذهي يا صاحبة الجبال النوم»

بدت عينا الحشرة كأنها تحدقان بـجين. وما لبثت ان فتحت جناحيها وطاروت بين الاشجار تبعتهما جين بنظرها. فلاحظت ان السماء بدت داكنة. فأصغت قليلاً لتسمع صوت المطر على الاوراق الكبيرة. وشعرت بتعسيرة عندما سقطت قطرات المطر الكبيرة على عتقها وذراعيها.

يا الهي من الافضل ان تعود بسرعة قبل ان تبلل كثيراً. راحت تركض وتسمع اثمها المطر بقوة. شعرت كأنها في منزل ضخم مليء بالنباتات الخضراء التي تتصاعد منها العطور الوجدية. الغيوم تنكس والعتمة بدأت تعم الغابة. اضاءت السماء واهاء برق فضي جذوع الشجر. يرسم بوضوح الاوراق والازهار.

احتل الذعر قلب الفتاة الانكليزية الضائعة وسط عاصفة استوائية. انها لمجنونة حقاً. كان عليها ان تدرك ان يوماً حاراً كهذا ينتهي بعاصفة...

الشمع البرق مثل سهم تاري بين الاشجار ساطعاً على شبحها المارح وحطل المطر مزاراً وتبلل ثوبها الخفيف الذي راح يلتصق بجسمها.

كانت جين تركض مثل حيوان صغير مذعور وفي رأسها فكرة واحدة. الخروج الى الهواء الطلق.. البرق يتعاقب مضيقاً لها الطريق. لكن الانعصان المندلية تمنعها من التقدم. وتحدش قدميها وذراعيها: «يا الهي»

اصطدمت بكل ثراها بشيء ما تصورت انه جذع شجرة. الى ان ارتطمت يداها بعنف في جسم انسان. لا يمكن ان يكون سوى جسم الدوق. الناعم والقوي.. لكن ذلك مستحيل. فهو على بعد اميال من الغابة.

«جين»

هذا الصوت جعل جين تحس انها في حلم او كابوس.

«هذا انا. بيدرو. اسمعيني. يا مجنونة.. جين. توقفي عن الارحاجاف هكذا.. والا فاذك تحطمينني!»  
«سينى... بيدرو... اهذا انت؟»

تعلقت اصابع الفتاة به. وفي نور البرق رأت وجه الدوق يتحنن على وجهها. ويعتاه السراوان تلمعان باضطراب. انه هو نفسه. انها تلمسه وتراه. وهو يشد عليها بقوة. لم تره غاضباً كالآن.. كان يبدو عليه انه يريد قتلها. اسند ظهرها الى شجرة وراحت يدها تمسحان الدموع عن عينيها.

«جين! ابتها الفتاة الحبيبة»

راحت يدها تتحسسان شعرها المبلل وغنغها. وكان المطر يحطل بغزارة فخلع الدوق سترته ووضعها على جين التي كانت ترتجف برداً. كانت على وشك الاغيا. قالت هائمة.

«هنا، تحت الاشجار، خطر علينا»

«الخطر موجود في كل مكان. النساء يرتدين الثياب الخفيفة ثم يتكلمن عن الخطر»

«انا اعني خطر العاصفة، بيدرو! لنذهب بسرعة، ارجوك»

«سأفعل عندما تكونين مستعدة لذلك. اعتقد أنك تخافين مني اكثر من خوفك من العاصفة. ما يحدث في الطبيعة ليس سوى عاصفة تنتهي بعد قليل. لكن الذي يزعجنا لن ينتهي ابدأ، اليس كذلك؟»  
«انا... انا لا اعرف ماذا تقصد»

لم تفهم سبب الختان المندفع وسط اضطرابها، لم تكن ترى سوى شيء واحد، بيدرو، قد عاد الى الصقر الذهبي. ويحدث عنها في كل مكان الى ان وجدها هنا.

أمر الدوق جين. وهو يمسك ذقتها ويبعده عن صدره، رغبة منه ان يجبرها على النظر اليه.

«لا عذر بعد الآن يا جين! عانقتك، لأنك سرقت قلبي بعينيك الزمردتين، يا ساحرتي الصغيرة. ولأنك وضعت على صدري يديك النحيلتين لتشعلي قلبي. التحببني يا جين، كما احبك؟»

قالت جين، وقد فوجئت

«احبك! كنت اود ألا احبك، حاولت... انت واننا... اننا من عالمين مختلفين».

«أنا أقول يا جين... إن جسمنا مفترقان فقط».

«اريد ان التحدث عن وضعنا...»

«صحيح، يا حبيبتي، هذا الحديث مشوق. وضعنا لا ينقصه الاغراء حتى تحت الطوفان وبالرغم من البرق الذي يثير عينيك الساحرتين»

«انت مصر على تغيير معنى كلامي»

حاولت جين التخلص من الدوق، لكنه كان يحبسها بين ذراعيه ويشدها نحو بقوة.

«يا سيدي، ارجوك، هذا جنون! عندما تتوقف العاصفة، سوف تندم على كل ما قلته»

«اتريدين ان تقولي اني سأشكر العاصفة لأنها سمحت لي بأن اكلمك...»

اخفض عينيه صوب وجهها الشاحب والمبلل حيث كانت نظراتها الحضراء تلمع.

«هذا غريب! انه من الصعب الاعتراف بحب امرأة نحبها، فكيف مع امرأة عابرة كنت اود ان اطلعك على شعوري في هدوء، لكن لم تسنح الفرصة. كان يجب ان يحصل ما حصل. انها عاصفة في قلب العاصفة»  
«انا لست سوى رفيقة ابنك. وانني انسانة فقيرة، خالية من الجاذبية، وثاقفة. لا افهم ماذا تنتظر مني، لكن... لا اريد ان اذل حبي بقبول علاقة معك. لقد اعترفت لك بكل شيء! وارجوك ان تصدق ان ما اقله حقيقة»

همس الدوق:

«انني مقتنع تماماً، ابتها المخلوقة الصغيرة غير الواقعية! أه! يا جين! انت تدافعين عن شركك، حتى وانت بين ذراعي، اليس كذلك! ارجوك ان تصدقيني. ان ذراعي ستكونان فردوسك وبيتك. احبك يا فتاتي الصغيرة. روحك البسيطة واد اصبح فيه عندما انظر اليك، ارى البراءة وشجاعتك وسحرك. وارى المرأة التي ارغب، والتي اريدها



زوجتي... هذا اذا تمكن الطيار ان يقلع في هذه العاصفة. تعالى. حان وقت الرحيل...»

«انا لا افهم... ماذا تقصد؟ الى اين؟»

«اذا حالقنا الحظ. يا حبيبتى. الى البرتغال!»

ضمها الدوق الى صدره في عناق حار:

«بيدرو. ارجوك.»

«الا تحبين العناق؟ يا حبيبتى. يجب ان تعتادي ذلك من الآن فصاعداً. لأنك ستصبحين زوجتي.»

«بيدرو.»

خبأت وجهها في صدره وقالت:

«اريد ان اعرف ماذا جرى. اين كنت؟ اعتقدت انك كنت مع... مع...» قاطعها بسخرية:

«مع امرأة؟ حيا، الوقت لا يسمح بالمناقشة. وصلت العاصفة الى ذروتها وهكذا سيقى الراغبون بالوصول الى الصقر الذهبي بعيدين عنا. حتى احقق امنيتي. امسكي بيدي يا حبيبتى واركضي معي.»

ستذكر جين. كل حياتها. ما حدث تلك الليلة. الحرب ليلة في حياتها. عندما وصلا الى الصقر الذهبي كان الخادم برميثيفو في البهو حاملاً المعاطف. وضع كل منها معطفاً وراحا بحتسيان القهوة الساخنة. كان تريستاو مرتدياً ملابس السفر والحقائب في انتظار ان تنقل الى سيارة الجيب الواقفة امام ساحة القصر. بدأ المطر يخف والرعد يتعبد لكن جين مازالت تسمع الاصوات الآتية من

الادغال. كانت اصابع تريستاو تمسك باصابع جين.

صرخ تريستاو متأثراً:

الطويل! ابي ان الهنود يودعوننا.

«نعم. يا بني.»

حمل بيدرو الصبي على ذراعه ووضعته في السيارة. ثم قال لجين:

«اصعدى. يا حبيبتى.»

ساعد جين بالجلوس في مقعدها بحنان.

«سيقودكما برميثيفو الى الطائرة التي تنتظرنا في المدرج. ثم يعود ليأخذنا. انا وجوستوس. سنأخذ الاثنين معنا. يجب ألا نتركها بين ايدي اولئك الذين يجعلون من البرازيل بلداً مضطهداً. يعيش في الدعر... كنت تتصورين انني كنت امضي كل هذا الوقت مع امرأة. يا جين...»

قهقه الدوق واضاف:

«يا حبيبتى. كنت اساعد بعض الاصدقاء على الرحيل من البرازيل. وكان يساعدني زوج فيليسيا دي ايفانجيل. وصباح اليوم. سافرت فيليسيا وزوجها في الباخرة وبها الآن في طريقها الى البرتغال. الآن حان وقتك يا جين. ارجوك. لا تنظري الى الوراء. اذهبي الى الطائرة وانتظريني مع تريستاو. كل شيء كما اخططت ثقي بي.»

انطلقت سيارة الجيب. والقت جين نظرة وراها وشاهدت بيدرو يدخل المنزل مسرعاً. صرخت قائلة:

«برميثيفو. ماذا يفعل الدوق؟»



« أنه يشعل النار في الصقر الذهبي يا أنستي، في المزروعات وفي كل ما يملكه هنا.»

«أوه لا!»

اغتمضت جين عينيها واحست بضربة تخترق قلبها. ثم قالت:  
«أهو مضطر لأن يفعل ذلك؟ اليس هناك حل آخر؟»

اجابها الخادم الهندي في صوت ناعم وفخور:

«ليس ثمة حل آخر، يا أنستي. انها ارض آل زانتو، وعلى الدوق ان يشعل النار في القصر حتى لا يضع الاشرار ايديهم عليه. الدوق هو انسان شجاع وعظيم. ما من احد ينسأه هناك البرازيل. خاطر بحياته لمنع العسكريين من اضطهاد الناس. ورأسه مطلوب اذا بقى في البرازيل. لكن عليه ان يحرق المنزل.»

وبينا انطلقت السيارة في سرعة لا توصف كانت جين تفكر بألم ان الصقر الذهبي سيختفي الى الابد.

بعد مرور ساعة تقريبا، اقلعت الطائرة في الليل، وكانت الادغال مضادة باللهب المتصاعد من الصقر الذهبي، ومن حقول البن والقطن. حلفت الطائرة فوق المحرقة الضخمة الحراء الذهبية وكأنه الوداع الاخير.

وكانت جين تحاول حبس دموعها فألقت نظرة الى الدوق الذي كان يتأمل الليل من نافذة الطائرة. كانت ملامح وجهه ممتلئة حزنا، امسك يدها وضغط عليها بقوة وقال:

« الصقر الذهبي ملكنا. وسيبقى لنا الى الابد. لن يقع بين ايدي اولئك الذين لا يستحقون...ومن الان فصاعداً لن يتسكع احد في هذه

الحداثق. لن يحتمي احد القهوة في ظل الاشجار. ولا يستمع احد الى اصوات الادغال في ليالي الصيف الجميلة. وسيبقى الصقر الذهبي في ذاكرتنا، كما كان سلياً، سيخرج من النار نقياً كالذهب»

لم تتمكن جين من حبس دموعها.

همس الدوق قائلاً:

«لا تبكي يا جين. ثمة حياة اجمل في انتظارنا»

الطائرة تحلق وترستار قائم على كتف جين. حمله الدوق ووضعها لينام على الكية.

همس بيدرو قائلاً:

«انه يشبه والدته العزيزة كل الشبه»

نظرت جين اليه نظرة يائسة. وراحت تتسامل. والدته العزيزة! ادارت نظرها عنه لتشاهد، من دون ان ترى، الليل المليد بالتجوم.

«جين!»

وضع بيدرو يديه الحاريتين على كتفي الفتاة وقال:

«ارجوك، اسمعيني. عندما اشرح لك كل شيء.. لن تعود بيتنا اية علامة استفهام»

سألته جين بدون ان تتجراً وتنظر اليه:

«والدته...اما زلت تحبها؟»

همس الدوق وهو يحني رأسه نحو رأسها وقال:

«سأحبها دائماً، لأنها شقيقتي ماغدالينا...مات خطيبها في البيرو

عندما كانت تنتظر منه ولداً. فعلت ما يجب ان افعله. واصبح هذا

الصبي ابني. و ماغدالينا اصبحت راجية. لم اكن اقنى لها هذا. كنت

أمل ان تتزوج لكنها رفضت ان يحب رجلاً آخر لم اكن افهم عنادها  
 هذا. لكنني الآن افهم تصرفاتها من كل اعماقي. اعرف الآن ماذا  
 يعني ان يحب الواحد انساناً اكثر من اي انسان آخر.  
 واستدار نحو جين التي لم تكن قادرة على الكلام.  
 حلق الدوق بيدرو ذي زانتو في عينيها ورفع يده ووضعها على  
 شفتيها. شعرت بلمسته الدافئة واحست بفرح قوي يختلج في فؤادها.  
 لا جدوى من الكلام... النظرات وحدها تتكلم والقلب يعرف انه  
 في مكان ما من الدنيا سيبنيان معاً قصرأ جديداً وبسمياته الصقر  
 الذهبي.